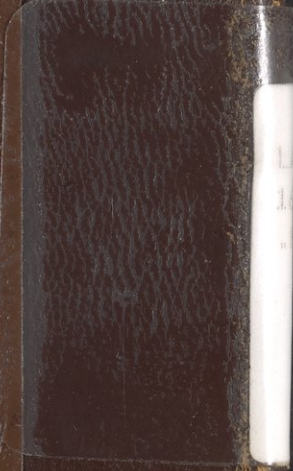


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



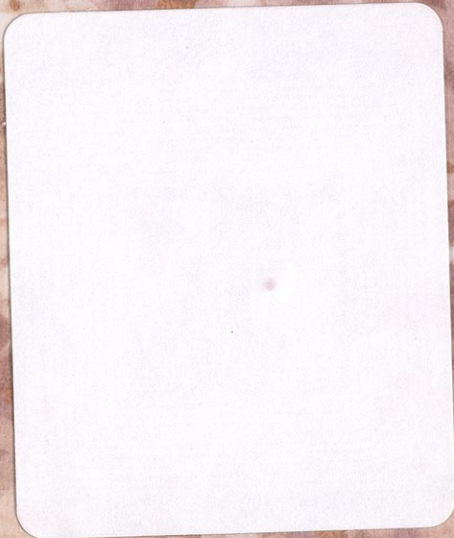
3 8534 00845 9830





FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة







أَمِير بَقَطَر

LA

1646

B52



آراء حسان بن ثابت
في التعجيب

~~37.1~~
~~B63m~~

٧٠
ب. ا. ١

النور



23135

الاستاذ أمير بقطر

القراءة الصامتة

يظهر أن الغرض الوحيد الذي ترمي اليه مدارسنا المصرية من تعليم القراءة هي تغويد الطلبة أخراج الالفاظ من مخارجها والنطق بها نطقاً صحيحاً مع مراعاة جودة الالقاء وضبط آخر الكلمات بالشكل مراعاة لقواعد اللغة العربية

ونعم الغرض طبعاً ، لأن المفروض أن الطلبة بعد خروجهم الى ميدان الحياة كثيراً ما يحتاجون الى حسن المطالعة والالقاء أو الخطابة . كما اذا زاولوا مهنة التدريس أو المحاماة أو الوعظ أو تبوأوا كرسيّاً من الكراسى النيابية أو شغلوا احدي الوظائف السامية التي تدعوهم في أحوال كثيرة الى أعتلاء المنابر والتأثير في سامعيهم بما يلقونه من سحر البيان وفصاحة اللسان وخلاصة الالفاظ وبلاغة العبارات

غير ان الغرض من المطالعة يجب أن يكون أبعد مدى وأوسع مجالاً . فأولئك الذين ينزلون الى ميدان العمل بسلاح الخطابة طائفة معدودة لا تتجاوز عدد الاصابع ، بجانب الجيش العرمرم من الطوائف الأخرى التي نزول التجارة والصناعة والزراعة والأعمال الحرة بجميع فروعها

أن الغرض الاسمي من المطالعة يجب أن يكون فهم العبارات التي
تقرأ ، والالمام بما تنطوى عليه من الآراء ، واستنتاج نيات الكاتب
والحقائق التي يريد التلميح اليها من خلال سطورهِ وتنايَا عباراته ،
وأستجلاء غوامض أفكارهِ من مطاوى أقوالهِ ، وهو ما يعبر عنه رجال
التربية بالقراءة بين السطور أى تصيد المعاني في خلال المطالعة

ويجب فوق ذلك أن يقوم القارئ بكل هذا في أقل فرصة ممكنة
فلا يكفي أن يصل القارئ الى ادراك المعنى وحسب ، بل يجب أن
يتوخي السرعة واقتصاد الزمن أيضاً . فليس من الصعب أن تعبر النيل
ساجماً من ضفة والى ضفة لكن من الصعب أن تفعل ذلك في زمن محدود قصير
وأبطال السباحة يحاولون عبور بحر المانش من حين الى آخر ، غير
أن التفوق في سرعة عبوره هو ما يكسبهم هذه البطولة ، وقطع المسافات
الشاسعة سيراً على الاقدام أو جرياً لا يكسب صاحبه فخراً ما لم يفعل ذلك
في أقل فرصة ممكنة

وكما زادت الأمة ثقافة وحضارة أشدّت حاجتها الى هذا النوع من
المطالعة والسرعة في اقتناص المعاني من أطراف الالفاظ ، وليس السبب
في ذلك حاجة الأمم المتمدنية الى اقتصاد الزمن أكثر من سواها لوفرة
أعمالهم وتشابك مصالحهم ، بل لداع أهم وأقوي .

ذلك ان الأفكار في هذا القرن قد نضجت فأينعت ثمارها ،
وازدحمت البلاد المتمدنية مكاتبها ومعاهدُها وأنديةها بالكتب والمجلات

والصحف في كل علم وفن ، حتى أصبح أهل الثقافة مضطرين بحكم
الوسط ومجاعة لازمن ان يتبعوا التيار الفكري ويقفوا على سير الحوادث
العامة والسياسية والاجتماعية والادبية ويرقبوا الاتجاهات الحديثة
في مدنية عصرنا الحاضر

فأذا هم ساروا متباطئين وحذوا حذو أبناء الأجيال الغابرة لم يدركوا
قطرة من بحر واصبحوا بينهم وبين حضارة هذا العصر هوة سحيقة
وانتى اسرد هنا بعض الارقام التي تبين لنا شيئاً من ثمرات الافكار
وسيلها الجارف في عصرنا الحاضر . ربما يذهل القارئ اذا علم أن في
أمريكا وحدها ظهر باللغة الانجليزية في موضوع اللاسلكي فقط ٨٠
كتاباً و ١٠٠ مقالة في سنة واحدة (١٩٢٦)

وقد ذكرنا في مقال في مجلة هلال أن عدد ما طبع من
الكتب سنة ١٩١٤ في ولايات امريكا المتحدة كان ١٧٥ مليون مجلد
فأصبح في سنة ١٩٢٥ - ٣٢٥ مليون مجلد . وان ما يطبع من الكتب
يكفى ان يكون لكل ولد وبنت ورجل وامرأة ثلاثة منها . ويبلغ ثمن
هذه سنوياً ١٥٠ مليون جنيه . ويطبع في تلك البلاد وحدها يومياً من
الجرائد ما يكفى واحداً من كل أربعة من السكان ، ويبلغ ما يطبع من
الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية والشهرية ٢٥ ألفاً ، وعدد ما يوزع
منها من النسخ يكفى أن يصيب كل بالغ من السكان أربع نسخ منها
أما في المكاتب العمومية فقد بلغ ما يعار من الكتب سنوياً في أربعين
مدينة في امريكا ٩٥ مليون مجلد

وبالاطلاع على الكتاب السنوى الذى نشرته صحيفة الديلي ميل فى لندرة نجد أن عدد ما طبع فى بلاد الانجليز من الكتب سنة ١٩٢٦ كان ١٢٧٩٩ مجلد رغم ما قام بتلك البلاد فى ذلك العام من الاعتصاب العام واعتصاب عمال الفحم وما نتج عنهما من الاضطراب

وبلغ ما بيع من الجرائد والمجلات فيها فى السنة عينها ما ثمنه ٤٥ مليون جنيه تقريباً وقد كانت هذه الارقام ١٤ مليون جنيه سنة ١٩١٢ وهذا الوثوب السريع فى كمية ما يقرأ وثن ما يباع دليل على وجوب التدريب على سرعة المطالعة وكثرة الاطلاع

أن الغرض من سرد هذه الارقام لفت نظر القارئ الى الحقيقة الناصعة وهى ان نطاق المطبوعات قد اتسع الى ما يحويه الفكر ، ومجال التفكير قد امتد الى الافق فلم يبق بعد من سبيل الى تعويد الناشئة تلك الطريقة البطيئة المعهودة ، بل وجب أن تحذو البلدان الاميركية والاوربية فى تدريب الطالاب على تقوية ملكة القراءة السريعة

ويطلق على هذا النوع من القراءة اسم القراءة الصامتة كما يتضح من عنوان هذا المقال ، تمييزاً لها من المطالعة بصوت مرتفع أما لغرض التمرن على النطق الصحيح أو الخطابة أو استظهار القطعة التى تقرأ ولا جدال فى أن القراءة العملية هى الصامتة لانهاهى وحدها التى يستخدمها الناس توصلوا لفهم العبارة أو المقالة أو الكتب أو الصحف التى يطالعونها ولا بد أن لاحظ الكثيرون منا كيف أن أولئك الذين لم يكن لهم من

التربية قسط يذكر يطالعون على الدوام بصوت مرتفع ، فإذا قرأوا صحيفة يومية أو خطاباً جاءهم بطريق البريد أو كتاباً ، سهلاً أو صعباً ، رفعوا أصواتهم حتى ولو كانوا جلوساً في القهوة على قارعة الطريق ولهؤلاء كل العذر فيما يفعلون ، إذا أن الطريقة التي يلجأ إليها خير وسيلة لتقريب فهم العبارة الى أذهانهم ، أن أن مطالعتهم محدودة وتعودهم القراءة معدوم تقريباً .

ومن مبادئ علم النفس الأولية ان استخدام حاستين في درس عبارة أقوى من استعمال حاسة واحدة ، فإذا ما قرأ الإنسان شيئاً قراءة صامتة بعثت العين رسالة بواسطة الاعصاب الى الدماغ فيعي ما يقرأ لدرجة محدودة ، فإذا ما قرأ بصوت مسموع ، وصل الى الدماغ رسالتان في آن واحد ، رساله من العين وأخرى من الأذن ، فتصبح العبارة المقروءة أقرب الى الفهم وأثبت في الذهن ، أو كما يقول علماء النفس تترك أثراً أعمق في طيات المخ .

ويجب أن يلجأ لهذه الطريقة اولئك الذين يريدون استظهار القصائد أو العبارات وعبارة أخرى يجدر بالطالب الذي يريد التمكن من قطعة المحفوظات المطلوبة أن يقفل باب غرفته ويكررها على مسمع من نفسه واننا ننصح دواماً الطلبة الذين لا يحسنون نطق الكلمات صحيحة ، خصوصاً في اللغات الاجنبية أن يكثرُوا من المطالعة في مخادعهم وفي خلواتهم بصوت عال أو مسموع على الأقل ، لأن في ذلك أكبر مقوم لألستهم ولو كان نطقهم بغير مدرس أو مرشد يقودهم الى الخطأ ، لان الغرض من

ذلك. تليين ألسنتهم وتكوينها حتى يسهل تحريكها وتدريبها
وفي أساطير القدماء حكاية مشهورة لديموستين الخطيب فقد كان
ديموستين خطيب الاغريق يتردد بعض الاحيان في اخراج بعض الحروف
من مخارجها . فوطد العزم على القضاء على لكنته بأن اخذ الحصا الرفيع
ووضعه بين اسنانه حتى اذا ما تلغثم حالت الأحجار دون ذلك .

غير أن الحاجة الى حسن الالقاء والنطق كما قلت ضئيلة جداً اذا
قيست بالحاجة الى القراءة الصامتة التي نستخدمها في حياتنا اليومية ، حتى
بين جدران المدارس

فالطلاب يذاكرون الجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء في المدارس
الابتدائية والثانوية ، وكذلك المواد الأخرى في الطب والحقوق
والهندسة والزراعة والتجارة في المدارس العالية ، وهم يستخدمون في
فهمها طريقة واحدة وهي القراءة الصامتة

ولكن اليس السواد الأعظم منا ، أن لم أقل كلنا ، نطالع ببطء
لا مزيد عليه ؟ اذا كنت أيها القارئ العزيز في شك مما أقول فادرس
المسألة يوماً بنفسك . انظر الى انجليزي أو اميركي يطالع صحيفة أو مجلة
أو كتابا وانظر كم من الوقت يستغرق في صفحة ، واذا اتاحت لك الفرصة
وسافرت الى انجلترا أو أميركا أو شمال المانيا أو هولاندا ودانيمركه أو
السويد والنرويج فارقب عن كثب تلك السرعة الهائلة التي يستوعبون بها
فكرة أو موضوعا بعد مطالعته .

لقد شاهدت ذلك بنفسى و كنت اجهل الموضوع جهلا تاماً . كنت

أطالع الفصل في الكتاب في ساعة وقد كان يطالعه جارى أو جارتى في الكلية أو المكتبة في نيويورك في عشر دقائق . رأيت ذلك فكنت أخجل من نفسى . لأن انجاز الأعمال في وقت معقول والحركة والنشاط وسرعة الخاطر من المسائل التي يجب أن تكون جزءا من تربيتنا ، وتكون شطراً من حياتنا

ولايستوى القارىء الفهم . فلكل قاعدة استثناء ، فان الكتب التي أشير اليها هي الكتب المعتادة التي لا يصعب فهمها أو التقاط المعانى من خلال سطورها ، فكتب علم النفس والفلسفة للمبتدئين وغير المبتدئين أحياناً تتطلب زمناً لفهمها ، كذلك الكتب التي لا يقصد منها سوي الأسلوب الكتابي ، والمقالات التي يقصد بها الحلاوة الشعرية ، والتنميق اللفظي ، والاسترسال في الوصف ، والأبداع في التعبير . هذه كلها بالطبع لها قيمتها الفنية ، ولعشاق الفنون الجميلة وقفة عند كل تمثال برع الممثل في صقله وتجميله ، و كل صورة تأنت في سبكها ريشة المصور الفنان هذا كله موضوع آخر . فأنت اذا تغزلت في مطالعة قصائد المتنبي وترويت في كتابات شكسبير وملتون ، وأعدت كلام لامارتين وموليير فأنتما تفعل ذلك لدافع آخر في الغالب غير تصيد المعانى .

وهب أنك تفعل ذلك فأنت معذور على كل حال لأن أولئك الكتاب يسمو بهم الخيال الى غير الجو المعتاد الذي نحن فيه فيحملون المعانى الى مستوى يكاد يكون محمولا على اجنحة الملائكة .

نعود الآن الى الموضوع . قلت اننى كنت أخجل ازاء سرعة أخواني الفائقة في فهمهم ومطالعتهم ونظراتهم الى العبارات كالنظرة العامة التي

يلقيها الطيار الماهر من سماء طائرته الى منازل المدن كتلة كتلة . ومجموعة مجموعة ، وحيأ حياً

فطنت الى ذلك — وكنت حديث العهد — فأخذت أدرس السر وهو بسيط جدا . اولئك الغربيون خصوصاً السكسونيون منهم أخذوا على عاتقهم توفير الزمن حتى في قراءتهم فعودوا نفوسهم منذ نعومة أظفارهم ذلك ، حتى تراهم يباهون بعدد الكلمات التي يطالعونها في دقيقة واحدة . وهذا العدد يحفظونه في ذاكرتهم ، وكلما اتيج لهم زيادته بالتمرين والتكرار رفعوه مغتبطين وقالوا لأخوانهم عنه

ومن المفاجآت التي كنت لا أفهم لها معنى في ذلك الوقت أن شيخاً كان أحد طلبة الجامعة هناك بضعة شهور لتجديد معلوماته كان يفاخر أن حفيده سريع جدا في المطالعة وأنه اسرع من ابيه وجده . ومن هذا يعلم القارئ أن سرعة الشخص في المطالعة — طالبا كان أو غير طالب — كثيرا ما تكون محفوظة عند أصحابها ، كما يحفظ هواة السباحة والجري والكتابة على الآلات الكاتبة والاختزال سرعتهم فيها .

ولابد أن عيل صبر القارئ الآن . فالسؤال الذي يخطر على باله هو كيف يتوصلون الى تدريب الطالب على ذلك من صغره . الجواب على ذلك أن في نهاية السنتين الاوليين من التعليم الابتدائي ، بعد ان يكون التلاميذ قد تغلبوا على صعوبة المطالعة البسيطة ، وفهم العبارة التي تناسب أفهامهم يأخذ معلمو اللغة في الاكثار من المطالعة الصامتة ، والألحاح على الأولاد والبنات أن يستخلصوا المعنى في أقل زمن ممكن . ويفعلوا ذلك تدريجاً في بادىء الأمر

ثم يوجهون نظرهم دوماً الى أن الغرض اقتباس المعاني ، فينوعون كتب المطالعة ويحسنون تخير القطع الملائمة لسنهم وأهوائهم ، وتقوم المدارس عادة بأعداد عشرات الكتب لكل سنة من السنوات الدراسية وتوزيع كتاب من كل نوع منها على كل طالب وجمعها في آخر كل حصّة وحفظها في مكتبة المدرسة

وقد سألت مرة معلمة كانت تدرس المطالعة لتلاميذ السنة الاولى في مدرسة ثانوية في آخر العام المدرسي عن عدد انواع الكتب التي قرأها طلبتها في خلال العام المنصرم ، فأجابت انهم تمكنوا من قراءة ما يقرب من اربعين كتابا . ويدهش السامع لأول وهلة ، غير ان الحقيقة هي ما ذكرت . توزع المعلمة في أول الحصّة لكل طالب نسخة من كتاب في الحكايات التاريخية . وربما تقضي خمس دقائق أو عشر في تدريب التلاميذ على المطالعة المعتادة بصوت مسموع ، وبعد ذلك يعطى لهم فرصة ثلاث دقائق مثلاً لمطالعة الحكاية الثانية والوقوف على موضوعها وفي نهاية الوقت تبدى المعلمة ما ينذر بانتهاء ثلاث الدقائق وتأخذ في سماع الحكاية منهم بلغتهم مع مراعاة الضبط في تركيب الجمل بقدر الامكان ولا يلزم أن تسمع من كل طالب ولا أن يلقي الطالب الواحد مضمون الحكاية برمتها بل يكفي أن يسرد جزءاً منها ، وتدون المعلمة ملحوظات على كل طالب حتى تعير التفاتة خاصة الى الضعفاء منهم . وتقوم الكتابة أحياناً مقام التسميع الشفوي في تلخيص الحكاية . وهكذا تنتقل الى حكاية أخرى الى نهاية الحصّة

ولا يلزم أن يقرأ كل ما في الكتاب من أوله الى آخره ، ولا أن

يوقف توزيع كتاب آخر حتى يفرغ من الكتاب الاول بل تتنوع الكتب كل يوم أو يومين أو ثلاثة أيام منعاً للملل والسآمة ، بشرط أن تقرأ كتب المطالعة المقررة في نهاية العام بعد حذف ما يتراءى للمعلم أو المعلمة حذفه

وللوصول الى السرعة المطلوبة في المطالعة يرفع القارئ رأسه مبتعداً عن صفحاته بقدر ما يسمح له نظره وراحته في جلوسه ثم يمر ببصره على الصفحة فقرة فقرة ، مهملاً في الغالب حروف الجر والعطف وغيرها من الكلمات التي تنحصر وظيفتها في ربط الكلمات والجمل والعبارات ، فيستخلص المعنى كما تستخلص القشدة من اللبن

وإذا أنعمنا النظر في المطالعة الصامتة وجدنا أن القارئ عادة لا يقف عند كل كلمة تصادفه لمطالعتها بل يمر عليها مر الكرام مادام المعنى أمامه ظاهراً ، والمفهوم بالطبع أن الكتب السقيمة الغامضة التركيب ، المهمة المعنى ، تجتنب بتاتاً في المدارس فلا توزع على طلبتها

وبالطريقة السالفة يستطيع المدرس أن يحفظ بياناً بسرعة الطلبة ويجهد في زيادة هذه السرعة أسبوعاً فأسبوعاً أن لم يكن يوماً فيوماً الى أن يصل جميع الطلبة الى درجة حسنة فيها

ولا تنحصر فائدة المطالعة الصامتة في السرعة فقط . فالسرعة هذه انما هي واسطة لغاية وهي توليد الميل الى المطالعة والاطلاع الواسع على ما ينشر يومياً من الكتب والمقالات القيمة

فاذا ما اطلع الطالب على أربعين كتاباً في حصة المطالعة فقط كما حصل في المدرسة السالفة الذكر ، وتكررت هذه العملية عاما مدرسياً

بعد عام ، أصبح طالب المدارس الثانوية مثلاً ملماً بكثير من الأفكار الحديثة في العلوم والآداب والتاريخ والأخلاق والفنون الجميلة وغيرها ومن فوائد المطالعة السريعة أيضاً تركيز الفهم وحصر الذهن وعدم شروء الفكر . ولا بد أن يشاركني القاريء في ذلك ، وهو أن القاريء متى تـلـكـأ في المطالعة وتباطأ في الوقوف عند كل كلمة ، متنقلاً من كلمة لكلمة ، ومن حرف لحرف ، شرد فكره وجمع إلى عالم آخر قد يكون عالم الخيال . أما إذا أسرع القاريء في قراءته لم يجد مجالاً للخروج عن الموضوع لأنه ينتقل من فقرة إلى فقرة رافع الرأس ملقياً نظرة عامة على الصفحة التي يطالعها

ولاشك أنه يشترط في بلوغ السرعة المطلوبة حدة النظر أو على الأقل عدم ضعفه والحقيقة أن في معاهد أميركا خصوصاً الابتدائية منها إذا ما لاحظوا أن التلميذ ضعيف في المطالعة سواء كانت الصامتة أم المرتقعة ، كان أول ما يخطر ببالهم هو إرساله إلى طبيب العيون للكشف عليه وتشخيص الداء وتعيين المعالجة أو نصحه بلبس نظارة أو غير ذلك

كما أن من فوائد هذا النوع من المطالعة في المدارس والاكتثار من كتب المطالعة توليد الميل في نفوس الطلبة إلى الدرس وحب الاطلاع والاتصال بالعالم الفكري على الدوام . فكم من الشبان خريجي مدارسنا الثانوية والعالية ، يعكف على مطالعة الكتب ويتبعون نظاماً خاصاً في شراء ما يصح أن يكون نواة لمكتبتهم الخاصة في منازلهم ، وكم منهم يستعير الكتب بانتظام من المكتبة الملكية أو سواها مثلاً ويخصص

شظرا من ساعات النهار في زيادة محصوله وتثقيف عقله
اذا قيل أن الكتب العربية قليلة لا تقاس بالمؤلفات الكثيرة التي
أشرت اليها في أميركا وأوربا ، فانه قول مردود وعذر غير مقبول
فندارسنا الابتدائية والثانوية في طاقتها استخدام مئات من الكتب
الحديثة التي أنضجتها أذهان الكتاب المصريين والسوريين وغيرهم من
ابناء اللغة العربية ، ونظرة واحدة في قوائم الكتب التي تنشر في
المجلات والصحف وأذيل الكتب تدلنا على ذلك ، أضف إلى ذلك ان
نطاق الكتب - اذا ضاق - وهو مالا اخاله ، فأمامنا بعض المجلات العربية
فهى تسد في هذا فراغا كبيرا

اوليس مما يخجل ان ترى متعلما لا يطالع سوى بعض الجرائد
السيارة ويظن ان في هذا غاية التربية ؟ واكثر من ذلك أليس مما يخجل
ان ترى متعلما يصرف ساعة او اكثر في جريدة لا تزيد صفحاتها
على ثمان

كنت اسمع في أميركا بعض الشكوى من المترددين على دور التمثيل
الصامت (السينما) لانهم يعتقدون ان الكتابة التي تظهر على لوحه
السينما شرحا لموضوعاتها تنتظر وقتا طويلا عليها بغير مسوغ ، وفي هذا
ضياع للزمن

وقد دهشت لذلك لاننى اعلم ان المترددين على دور السينما في
بلادنا المصرية يشكون من العكس ، فانهم يعتقدون ان الكتابة على

اللوحات المذكورة تحتطف اختطافاً فلا يستطيع المتفرجون قراءتها ، وهذا كما لا يخفى نتيجة ذلك النقص الكبير في المطالعة وحصرها في المطالعة المعتادة بصوت مسموع في كتب قليلة بالية محدودة، وبتؤدة وبطء وتأن لا تتفق مع الحياة العصرية الحاضرة

فهل لاساتذتنا الكرام البدء في تعويد أنفسهم أولاً القراءة الصامتة السريعة في حقل واسع من المكتب والمجلات الحديثة في الموضوعات الحيوية اقتصادية كانت أم أدبية أم علمية أم اخلاقية ثم البدء فوراً بتعليمها للطلبة الجليل القادم ؟

وسأجعل ختام مقالى هذه العبارة التي لا بد ان يحسبها بعض القراء مغالاة منى ، وهوان السرعة المعتادة في المطالعة في كتب متوسطة السهولة في اللغة الانجليزية تتراوح بين اربعائة وستمائة كلمة في الدقيقة كما انه على هذا القياس يجب ان تكون سرعة الفاريء هكذا في اللغة العربية ، فل تريد ان تجرب سرعتك من الآن وتجتهد في زيادتها يوماً بعد يوم وتدون النتيجة في مذكراتك اليومية وتخبر اخوانك واصدقاءك عنها !

اختبارات الذكاء

مهام التربية كثيرة متشعبة ولكن يمكن حصرها في عبارة واحدة وهي أحداث تغيير في أولئك الذين يتلقونها ، وبعبارة أوضح يجب أن يكون غرض التعليم الاسمي أحداث تغيير في نفوس المتعلمين . وما حجر التدريس وقاعات المحاضرات والمسكاتب ومعامل الطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي سوى أدوات ووسائل لهذا التغيير

وتوصلاً لهذا الغرض يجب أن نكون على علم تام بهذه التغييرات ومقاديرها ولا يتأتى ذلك الا بمقاييس دقيقة

فلمحاربة مقاييس تدعى ترمومترات وللكهرباء مقاييس تدعى أمترات وكذلك الذكاء أصبح له مقاييس تدعى اختبارات

وقد كان مقياس الذكاء الى عهد قريب مجهولاً إلا اذا اعتبرنا الدرجات التي تعطى في الامتحانات معياراً للمواهب الفطرية في التعليم أو ذكائه ، فلا يخفى أن الدقة في تقدير الدرجات أمر محفوف بالمصاعب ان لم يكن مستحيلاً . والارتكان على هذا التقدير في مقياس الذكاء خطأ مبين . فكثيراً ما نشاهد تفاوتاً كبيراً بين تقدير أستاذين يصححان ورقة واحدة . ففي فرقة واحدة قد يفشل ٣٠ في المائة من الطلبة عند

أستاذ بينما لا يرسم عند أستاذ آخر لنفس الفرقة الا اثنان في كل
مئة طالب

ودلت التجارب الواسعة التي قاموا بها في ولايات أميركا المتحدة على
صحة احدى الامتحانات بعد طبع مئة صورة من كل ورقة من أوراق
الامتحان ، فجاءت النتيجة مدهشة ، وهو أن الدرجات التي وضعها
الأساتذة على نفس ورقة الاجابة الواحدة كانت تتراوح بين ٢٨ و ٩٠
في المائة من النهاية الكبرى . وزيادة للايضاح أقول أن اجابة الطالب
جيمس مثلا طبع منها مئة نسخة وأعطيت نسخة لكل أستاذ لمراجعها
وتقدير الدرجة ، فنال الطالب جيمس درجات تختلف بعدد الاساتذة
تقريبا وقد أعطى له اكثر الاساتذة تشديداً ٢٨ في المائة من النهاية
الكبرى وأعطى له أكثرهم تساهلاً ٩٠ في المائة . ومن هذا يتضح أنه
من الخطأ أن نعتمد على درجة الامتحان في مقياس ذكاء الطالب

فلا بدع اذا فطن علماء التربية للأمر واستدركوا الخطأ واستنبطوا
طرقاً حديثة كمقياس المام الطالب بمواد الدراسة على اختلاف أنواعها
أولاً ولمقياس ذكائه ثانياً . ولا نقول أن هذه المقاييس بلغت من الدقة
والكمال ما يصح أن يعتمد عليه كل الاعتماد فانها مازالت في المهد إذ لم
يمض عليها أكثر من بضع سنوات

وهنا يجب أن نفهم جيداً نوعي هذه المقاييس وهما : —

أولاً — مقاييس الامام بمواد الدراسة

ثانياً — مقاييس الذكاء

مقاييس الامام بمواد الدراسة هي الطريقة الحديثة لاختبار الطالب في مواد الدراسة المعتادة وهي التي تقوم مقام الامتحانات المعروفة لدينا . وبعبارة واضحة هي الوسيلة التي بها نصل الى مقدار ما يعرفه الطالب من الجغرافيا مثلاً أو التاريخ أو الطبيعة أو التربية الوطنية . فطريقة الامتحان المعروفة عقيمة كما قلنا ولا تدل دلالة صحيحة على قوة الطالب في هذه المواد لأن المقياس متروك لتقدير الأستاذ الذي يعهد اليه مراجعة الامتحان . والتقدير يختلف باختلاف الأساتذة ولا يمكن أن يركن اليه كثيراً

ولكن يفهم مما سبق أن هذا التقدير لا يرتكز على أساس ولا ضابط له . فالاستاذ مصطفى يقدر الورقة ١٢ على ١٥ والاستاذ بكر يقدر لها ٥ والاستاذ عبد الله يقدر لها ٩ وهكذا فالخطأ في التقرير معيب وما العمل اذاً !

المسألة بسيطة . يجب أن نستعين بعلاماء التربية الحديثة ونستعير منهم النوع الأول من المقاييس أى مقاييس الامام بمواد الدراسة توصلاً الى تقدير دقيق مبني على أساس متفق عليه . والمقياس غاية في السهولة لا يحتاج في استعماله الى حذق أو مهارة — فهو كمقياس الحرارة والامطار والسوائل وغير ذلك

وهو عبارة عن خمس عشرة عينة من الخطوط . أولها لا يقرأ مطلقاً
ودرجته صفر وآخر أصحها وأجملها ودرجته ١٥ ، وما على الاستاذ
المكلف تقدير درجة الطالب محمد الامضاهاة خط محمد بالعينات المبينة
في المقياس والحكم فيما اذا كان خط الطالب أقرب شبيهاً الى العينة رقم
١٥ أو ١٠ أو ١٢ ووضع الدرجة على هذا الاساس

وهنا يعترض المتشائمون - خصوصاً الذين من دأبهم مقاومة كل
فكرة جديدة ويقولون ألا يختلف الاساتذة أيضاً في هذه المضاهاة ؟
والجواب أن التجارب دلت على أن هذا الاختلاف تافه جداً حتى يصح
اغفاله ، خصوصاً وان العينات قليلة . وينتج من ذلك أن الفرق بين العينة
١٢ مثلاً والعينة ١٣ يكون واضحاً جداً فلا ينتظر أن يخطئ الاستاذ
في المضاهاة خطأ جسيماً . بل لا بد أن يكون التقدير واحداً مهما تغير
المصححون

ولنلاحظ هنا أمراً آخر . وهو أن استعمال هذه المقاييس يجعل
الطلبة الممتحنين جميعهم في مستوى واحد من حيث أساس التقدير . فلا
يكون الطالب زبد عرضة لتشديد الاستاذ احمد ولا يشفع للطالب بكر
تساهل الاستاذ مصطفى

وهناك فائدة أخرى هامة . هبني سألت احمد الطالب في إحدى
مدارس الاسكندرية عن درجته في الخط فقال لي ١٢ على ١٦ وسألت

كاملا الطالب في احدى مدارس أسوان عن درجته فقال ٨ على ١٥ .
فبحسب النظام الحالي في تقدير درجات الامتحانات لا يمكن أن أفهم
أيهما المتفوق بأية حال من الأحوال . أما اذا كان هناك مقياس ثابت
فالعقبة تزول

في الوقت الذي كان فيه علماء التربية يعدون المقاييس العالمية ،
أى الاختبارات المعروفة لدينا التى بها ينتقل الطلبة في مدارسنا الى
الفرق العليا ، كان علماء النفس يضعون اختبارات الذكاء وكلا النوعين
يتفاوتان في موضوعهما وغرضهما ، فالمقاييس العالمية تقيس معرفة الطالب
للمواد الدراسية ، أى أنها تقيس المعرفة ، أما اختبارات الذكاء فانها
تقيس العقل والكفاية ، أى المواد الخام في الطالب

وفي سنة ١٩٢٠ فحص علماء التربية في أمريكا عن أكثر من مليون طالب
وطالبة بواسطة اختبارات الذكاء ، كما أنهم اختبروا مليونين لمقياس
المعرفة في الحساب ، والقراءة والجغرافيا والتاريخ والخط الخ
وبمقارنة نتيجة الطالب الواحد في الاختبارات العلمية أو ما يسمونه
بالانجليزية (Achievment) بنتيجته في اختبار كء أو ما يسمونه بالانجليزية
(intelligence quotient) اتضح لنا نسبة ذكاء الطالب لمجهوده فيتنبه
المعلمون لهذا الأمر ويفرقون بين الطلبة الذين يرسبون نظرا لاهمهم
وترايهم وأولئك الذين يفشلون لضعف قواهم العقلية
وهذه النتيجة تذكرنا بالتبعة الكبرى الملقاة على عاتق المعلم الذى

رجز التلميذ ويعنفه لفشله في حين أنه لا ذنب له ولا جناح عليه لأنه إن
فشل لضعف عقليته وخلوها من الذكاء

ولا تقل عن ذلك مسئولية المعلم الذي يفشل تلميذه في عمله ظناً منه
أنه عاجز عن فهم دروسه لضعف عقليته ، في حين أن كتلة الذكاء فيه
تحوله أن يكون بين الناجحين أن لم يجعله يتفوق على أقرانه

ولا يخطر ببال القارئ أن طرق مقياس الذكاء بلغت من الدقة
والضبط ما يغتبط به ، إذ أن الابحاث فيها ما زالت في دور الابتداء ،
غير أن هذا لا يدل على أن الاختبارات العلمية المعروفة لدينا أكثر
ضبطاً من اختبارات الذكاء ، فالاختبارات العلمية أيضاً ، كما أسلفنا ،
لا تدل دلالة واضحة على معرفه الطالب ، فمقياس معرفه الطالب للكيمياء
مثلاً أصعب بكثير من ايجاد الثقل النوعي للزئبق ، ومقياس المام الطالب
بعلم الاقتصاد أصعب بكثير من معرفه الصعود والهبوط في قيمة العملة
وإذا عددنا فوائد اختبارات الذكاء فأننا نجد في طليعتها
منفعة الطالب نفسه ، فإن أهم ما يجب أن نرعي اليه في هذا الشأن
الوقوف على سبب فشل الطالب ، لأن عدم نجاحه يضيع عليه الوقت
سدى فيفقد الثقة بنفسه . واختبارات الذكاء تدلنا على سبب هذا
الضعف والحد الأقصى الذي يجب أن يملكه في المدرسة ، ونوع العمل
الذي يحسن أن يشتغل به خارج المدرسة

وسيكون لامتحانات الذكاء في المستقبل شأن عظيم ، وينال من المجتمع الانساني كل رعاية واهتمام وبتأثيرها يقف الرأي العام سداً منيعاً في وجه ضعاف العقول من البالغين الذين يترك لهم الجبل على الغارب فيمتداسلون ويكثرون وينتج من ذلك اشتداد وطأة الاجرام ، التسول ، والاستجداء ، والعجز عن العمل

وقد وجد بالاختبار أن الطبقة من الناس التي لا يهتم بها أحد عادة هي التي تحتاج الى رقابة شديدة . ولا عجب اذا تشددت ولاية انديانا في أمير كا في قوانينها وحرمت تحريماً باتاً زواج المجرمين المعتادى الاجرام فقد دلت المشاهدات والاحصاءات ان الاجرام وضعف العقل متلازمان . ولا يعلم أحد مصدر الاشاعة المعروفة من أن المجرم يكون عادة ذكياً ، في حين ان الوقع والارقام العالمية تكذب ذلك . فضعف العقل ونقص كمية الذكاء متلازمان

وابحاث لمبروزر وأشياعه في هذا الموضوع مشهورة ، غير أن هؤلاء وضعوا همهم في درس شكل الجمجمة وتركيب العين والاذن والاسنان والانف والبشرة والشعر ، ولكنهم أهملوا البحث في مسألة العقل وعلاقته بالاجرام

واختبارات بينيه المشهورة تدل علي ان ٦٠ في المائة من المجرمين المعتادى الاجرام من ضعفاء العقول ، ولما كان مثل هؤلاء يكلفون الولايات المتحدة سنوياً ٥٠٠ مليون ريال فقد كان الامير كيون اول من

فطن لهذا الامر واستفبط المقاييس التي يسهل التوصل بها الى معرفة
ضعفاء العقول الذين يكونون اشد ميلا الى الاجرام من سواهم
ولا بد ان نشير هنا بهذه المناسبة الى ان أول من فكر في هذه
المقاييس احد علماء الفرنسيين وهو بينيه سيمون ، غير ان هذه الفكرة
التي قد ابتدعها ذلك العالم الفرنسي لم تتخط مؤلفاته بل وقعت هناك
ولم تتقدم علي يد غيره من بني جنسه ، حتى قام علماء النفس أخيرا في
اميركا ودرسوا الموضوع درساً دقيقاً الى ان وصلوا اليوم فيه إلى درجة
يشكرون عليها

واختبارات الذكاء تدلنا على التلاميذ أو الطلبة الذين يبلغون من
الذكاء والقوة العقلية درجة ممتازة ، وهؤلاء لا يزيدون عادة على ٢ في
المائة من عدد الطلبة ، بيد أنه يجب مراعاتهم خاصة حتى لا يضطروا الى
البقاء في الفرقة مع زملائهم الى أن ينقلوا الى فرقة أخرى أعلى منها في
آخر العام المدرسي ، بل يجب أن ينقلوا مرتين أو أكثر في العام الى
فرقة أعلى من التي هم فيها أو ينشأ لهم فرق خاصة إذا تسنى للمدرسة
ذلك ، فليس من الحكمة في شيء أن يعطل الطلبة نادرو المواهب ،
بأبقائهم مع من هم أقل درجة منهم بكثير عقاباً لهم على ما أنعمت عليهم
به الطبيعة من عبقرية وذكاء ممتازين

وليست فوائد اختبارات الذكاء مقصورة على الطلبة ، بل تتناول
المجتمع الانساني بأسره كما سبقت الإشارة . فالحال التجارية مثلاً والبنوأك

والمصالح تتكبد خسائر فادحة من قبول الموظفين بها بغير أن تفحص
عن عقليتهم ، في حين أن المصالح الراقية اليوم لا تقبل بين موظفيها من
لا يجوز اختبارات الذكاء على ما يرام . ونذكر بهذه المناسبة أننا في
أثناء وجودنا في أميركا قرأنا أن بعض المحال التجارية الكبرى ترفض
قبول الموظفين عند التحاقهم بوظائفها الخالية متى نجحوا في اختبارات
الذكاء نجاحاً باهراً ، لأنهم وجدوا بالاختبار أن أولئك الشبان أو
الشابات ، الذين يشتغلون ذكاء فوق المعتاد لا يطبقون العمل ولا يكون
لهم الجلد والصبر ، فلا يمضى عليهم وقت طويل في الخدمة حتى يشكوا
ويتذمروا ويطلبوا الاجور العالية ، ولا غرابة في ذلك فالهم يدركون
التفاوت العظيم بينهم وبين زملائهم في الذكاء وسرعة الخاطر . ومعنى
ذلك أن هذه المحال التجارية تكفي بالموسطين الناجحين وترفض الاوائل
والاواخر .

وقد أدت اختبارات الذكاء الى مواصلة البحث عن أسباب الضعف
العقلي . وإذا أوجزنا هذه الابحاث في كلمتين ، قلنا أن هذه الاسباب
تنحصر في الوراثة والبيئة ، ولا يقل تأثير الواحدة عن الاخرى ، فانه
قد وجد بالاحصاء أن ٦٠ في المائة من ضعاف العقول ، يرجع ضعفهم
الى الوراثة ، كما أن حكومة الولايات المتحدة كتبت في أحد تقاريرها
مرة أن أسرة واحدة كلفتها ما يقرب من نصف مليون ريال وذلك لأن
أفراد هذه الأسرة لازموا السجن مدداً متفاوتة

وقد فحصوا هناك عن عدد كبير من النساء العاهرات اللواتي يتجرن
باعراضهن ، فوجدوا أن معظمهن من ضعيفات العقول ، وأكثرن من
ذلك أن تتبع بعض العلماء الاسر التي نبغ أفرادها في الاجرام وأساليه
وحيله فوجدوا أكثر من ٦٠ في المائة من أفراد هذه الاسر من ضعاف
العقول ، ومن الذين اشتهروا بسوء السمعة ، بين سارق ، وقاتل ، وعاهر
ومدمن الخمر ، وحامل سفاحا ، ونصاب ، ومزور وغير ذلك

وقد ذكرنا الحقائق السالفة تنويراً للاذهان ، ولو أنها لا تتصل
بالتربية اتصالاً مباشراً . وقد بلغت اختبارات الذكاء في أميركا شأواً
بعيداً ، حتى أن علماء التربية فيها يقولون أن أولئك الذين يجهلون علم
النفس الحديث واختبارات الذكاء ولا يعتقدون بها كالذين يجهلون
التعليم ولا يعتقدون به

ومن فوائد هذه الاختبارات أنها أظهرت لنا جهل المعلمين بتلاميذهم
فطالما رأينا المعلم تخذعه أجابات تلميذه فيتوسم فيه الذكاء ، والحقيقة
أن المعلم يقيس هذه الاجابات بغيرها من أجابات التلاميذ بغير مراعاة
السن . فقد تكون الاجابة حسنة أو غير جيدة ولكنها لا تتناسب مع
سن التلميذ ، فيجب إذن عند الحكم على ذكاء التلميذ أن تقارن سنه
باجابته

وفي بعض السكليات في أميركا توضع اختبارات عامة في الذكاء

لجميع الطالبة عند الدخول بحسب أعمارهم ويتخذ الاماتذة نتيجة هذه الاختبارات أساساً لمطالبة الطلبة ببلوغ درجة معلومة

مثال ذلك الطلبة الذين ينالون في اختبارات الذكاء درجة ممتازة كالتى لا يحصل عليها أكثر من ٢ في المائة من الطلبة عادة ، بنبه عليهم أنه إذا لم تبلغ مجموع درجاتهم في جميع المواد في آخر العام ٨٠ أو ٨٥ في المائة من مجموع درجات المواد ، فأتهم يعدون راسبين

وقد يجوز الطالب امتحان شهادة الدراسة الابتدائية . لكن لا يدل في كل حالة على استعداد له لتلقى الدروس في المدارس الثانوية ونجاحه فيها ، فإذا أضفنا الى امتحان شهادة الدراسة الابتدائية أربعة اختبارات متنوعة من اختبارات الذكاء لتيسر لنا الوقوف على مقدار ذكاء الطالب وأهليته لمواصلة الدروس الثانوية أو بالعكس . والى هذا يعزى السبب في أن عدداً كبيراً من حملة الشهادة الابتدائية يقف نموهم العقلي عند حد المدارس الابتدائية أو السنة الاولى من المدارس الثانوية .

وينطبق هذا القول على عدد من حاملى شهادة الدراسة الثانوية الذين يحاولون الالتحاق بالمدارس العالية فأن مساعيهم تحبط بعد سنة أو أكثر ، مراعاة لوقوف نموهم العقلي وفقدهم في الذكاء الذى تتطلبه الدروس العالية

وينطبق أيضا هذا القول على كل سنة من سنوات الدراسة ، ولذا
فأننا إذا قمنا بأحصاء دقيق لعدد الطلبة الذين يواصلون دروسهم لنهاية
المدارس الابتدائية ، نجد أن هذا العدد يقل كثيرا عن عدد الذين
التحقوا بالسنة الاولى من المدارس الابتدائية . ويقل هذا العدد كلما
اقتربنا من السنوات الدراسية في المدارس الثانوية

ولا ندرى إذا كانت هناك أحصائية في وزارة المعارف العمومية
من هذا القبيل الا أننا قد رأينا أحصاءات عديدة من هذا النوع عن
كليات ومدارس أميركا وأوربا . ولا شك أنه يجب في هذه الاحصاءات
مراعاة عدد الطلبة الذين يغادرون المدارس لأسباب مالية أو غيرها ،
لأن البحث لا يتناول إلا الطلبة ضعاف العقول أو الذين يقف نموهم
العقلي عند درجة محدودة

ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن هذا الضعف قد ينتج عن أسباب
صحية أو غيرها ، ومتى زالت الاسباب عاد الطالب الى قواه العقلية
وبدأ نموه العقلي يسير في مجرة

وبهذا يفسر سبب نجاح الطالب نجاحاً باهراً في خلال الدراسة
الابتدائية والسنتين الاوليين مثلاً من الدراسة الثانوية والوقوف بعد
ذلك عن النمو وعدم المقدرة على مواصلة الدرس والتقدم ، فقد تكون
الاسباب صحية في بعض الاحيان ولاكنها تكون في الغالب وراثية
أو نتيجة مؤثرات أخرى في البيئة التي فيها يعيش

وقد دلت الاحصاءات على أن معظم أطفال الزنوج في مدارس ولايات أميركا المتحدة يقف نموهم العقلي في الخامسة عشرة من سنهم ، في حين أن الاطفال من الجنس الابيض يواصلون نموهم الى ما بعد العشرين

وقد يتساءل القارئ ، أين يكثُر الذكاء ؟ في الطبقات الارستقراطية ؟ أم المتوسطة ؟ أم السفلى ؟ دلت الابحاث على أن أفضح العقول وأذكاهم قد تأتي من أحقر الاوساط وأقلها ذكاء قد تأتي من اكبر الاوساط وأكثرها ثقافة وغنى وثروة

وفي كثير من المعاهد التي يهتم فيها ذووها باختبارات الذكاء ، يذكرون أمام اسم الطالب الممتحن الوسط الذي يكون منه أهله ، حتى يقارنوا نتيجة الاختبار بهذا الوسط

وقد سبقت الإشارة الى أنه توجد الآن في متناول المدارس ، اختبارات للذكاء متنوعة الغرض ، منها قياس كتلة الذكاء في الطلبة والتلاميذ ، ويختص كل اختبار بسن معلومة ، أي أنه توجد اختبارات للأطفال في الثالثة من عمره ، وأخري للأطفال في سن الرابعة وهكذا فالطفل الذي يكون عمره ثلاث سنوات ويدل ذكاؤه على أنه سنتان فقط ، يقال له ضعيف العقل ، والذي يكون عمره عشر سنوات ويدل ذكاؤه على أنه يعادل آخر في التاسعة من عمره ، يقال له أقل من المتوسط بقليل ، والغلام البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة ، ويدل

اختبار الذكاء على أنه يعادل في الذكاء غلاما في الخامسة عشر من سنه ، يقال له أنه في الذكاء فوق المعتاد

وقد وجد بالاختبار أن الطفل الذي تكون سنه الزمنية ٣ وسنه العقلية ٢ يتأخر سنتين في السادسة من عمره و ٣ سنوات في التاسعة و ٤ في الثامنة عشر من عمره

ومعنى ذلك أنه حينما تكون سنه الزمنية ٦ تكون سنه العقلية ٤ ، وحينما تكون سنه الزمنية ٩ تكون سنه العقلية ٦ ، وحينما يبلغ من العمر ١٢ ، تكون سنه العقلية ٨

وقد وجد بالاختبار أيضا أن التلاميذ الذين تتراوح درجاتهم في اختبارات الذكاء بين ٧٠ و ٧٩ في المائة (أى بعد قسمة السن العقلية على السن الزمنية وضرب الخارج في ١٠٠) يتقشقرون جداً في دروسهم بعد أربع أو خمس سنوات على الاكثر من التحاقهم بالمدرسة ، كما أن التلميذ الذى تبلغ درجته ١٢٠ في المائة فما فوق يكون أقوى من معظم تلاميذ الفرقة التى هو بها ، ويكون عادة بينه وبينهم تفاوت فى قوة الذكاء عظيم ، وقد يكون أكبر من أذكى تلميذ فى الفرقة بسنتين (عقليتين) . ويجب فى هذه الحالة نقل مثل هذا التلميذ الى فرقة أعلى فى الحال أو وضعه فى فرقة خاصة إذا تيسر للمدرسة ذلك

مثال ذلك . التلميذ أمين سنه الزمنية ٨ وسنه العقلية ١٠ ، فيقسمة السن العقلية على السن الزمنية وضرب الخارج في ١٠٠ ينتج ١٢٥ ، ومن هذا يتضح لنا أن التلميذ أمين يجب نقله فوراً الى فرقة أعلى لأنه أقوى بكثير من رفاقه

وينبغي أن نذكر أن التلاميذ الذين لا ينالون أكثر من ٧٠٪ يعتبرون ضعاف العقول

ونتيجة الاحصاءات في أميركا تدل علي أن أقل من ٦٠٪ من طلبة المدارس تتراوح درجاتهم في الذكاء بين ٩٠ و ١١٠٪

وأقل من ٤٠٪ من الطلبة تبلغ درجاتهم في الذكاء من ٩٥ الى ١٠٥٪ ، ولا يزيد عدد الذين ينالون ١٢٠٪ أكثر من ٣٪ من الطلبة ، ولا يزيد أيضا عدد الذين تبلغ درجاتهم ١٣٠٪ على ١٪ وفي مدينة من مدن أميركا التي يبلغ سكانها ٣٠٠ ألف وجدوا أن في جميع طلبة مدارسها يوجد طالب واحد في كل ٣٠٠ ممن بلغت درجة ذكائهم ١٤٠٪

وبمقارنة درجات الذكاء بين الذكور والاناث في مدارس أميركا وجد أن الجنسيتين سواء مع الفروق الطفيفة التي أشرنا اليها هذه كلمة وجيزة عن اختبارات الذكاء أردنا أن نرفها الى القراء وهي على قصرها تنقل الى الاذهان صورة مصغرة مما يجري في ميدان

التربية اليوم في أميركا من هذه التجارب التي تعود على المدارس والمعالمين
والمتعلمين بالنفع العميم

ويا حبذا لو أخذ حضرات نظار المدارس وأساتذتها في العناية بهذا
الموضوع وشرعوا في ادخال مقاييس الذكاء في مدارسهم حتى تصل
الي النتائج التي وصلت اليها أميركا وأوربا بواسطتها

ولا يفوتنا أننا اذا قمنا بهذه التجربة ، ألفينا حقول التجارب واسعة
لأن أمامنا أرجاء فسيحة لم تستكشف ومعلومات قيمة لم يقف عليها من
المربين أحد . فعدد الطلبة في مصر اليوم التابعون لوزارة المعارف فقط
في المدارس الاميرية والاهلية الخاضعة للتفتيش يبلغ أكثر من ثلاثة
أرباع المليون ، من بنين وبنات في المدارس الاولى والابتدائية
والثانوية والعالية

فاذا أرصدنا مبلغاً في ميزانيات التعليم للشروع في هذه المقاييس
فاننا نقف على حقائق وآراء ومعلومات ، ستظل دفيئة مجهولة مدى الايام
ما لم نعمل على استخراجها من مكانها

ويا حبذا لو بدأت وزارة المعارف العمومية بوضع نواة هذه
التجربة في خلال الامتحانات العمومية ، فان امتحانات الشهادات
الابتدائية والثانوية بقسميها ، هيئات منظمة بديعة يسهل القيام بهذه
المقاييس فيها ، وهذه العملية لا تستغرق من أوقات الطلبة الا بضع

دقائق ، وان كانت تتطلب زمنا طويلا في المراجعة ووضع جداول
الاحصاء والاستفادة منها

ولئن كنا على يقين من أن وزارة المعارف لا بد أن توجه عنايتها
يوماً الى هذه المقاييس ، ان لم يكن آجلاً فعاجلاً ، إلا أننا نأمل أن عدم
تمكن وزارة المعارف من القيام بهذا العمل حالا لا يمنع نظار المدارس
من القيام بها على حدة من تلقاء أنفسهم ، حتى ينصحوا على الاقل
لوالدى الطلبة ضعاف العقول أن يكفوا عن الدراسة عند حد معلوم إذا ما
دلت الدلائل على أنهم لا يصلحون لها حتى يجردوا لهم عملاً آخر في
ميدان الكفاح



العاطفة الجنسية

العاطفة الجنسية وكل ما يتعلق بها غريزة مطبوعه في كل حي من الأحياء لازمته من يوم ولادته إلى جميع أطوار الحياة . ونجاح الطفل في مستقبل حياته موقوف على توجيه هذه الغريزة إلى الناحية الصحية حتى يجد في اشباعها ما يعينه على حل المسائل التي تعترضه . وكثيرا ما يترك التاميد سائراً على غير هدى فتكون هذه الغريزة سبباً في وقوعه في التهلكة وفشله في الحياة . وسبب هذا الإهمال من جهة الوالدين والمعلمين يكون منشؤه عادة الجهل ، وسوء الفهم ، والتعصب الأعمى للآراء القديمة . والخوف من تنبيه الأذهان إلى المسائل الجنسية وغيرها من الأشياء التي لا تستند إلى أساس

إن سلامة العقل ، أو الصحة العقلية ، يقصد بها توافق الغرائز والطبائع التي تعمل في داخلنا ، ومتى شعرنا أن بعض هذه الطبائع تتنافر فينا ، نظراً لما قيل لنا عنها من الخرافات ، وما يحيط بها من الشكوك والظنون المبنيّة على الجهل والتقاليد ، أنبتنا الضمائر ووخزنا الوجدان ، ظناً منا أننا نرتكب إثماً أو نوصم بعار وقدودنا لوزعنا عنا تلك الطبيعة ، وألقيناها جانباً

وفي مقدمة الطبائع التي قد نطن أنها مدعاة لارتكاب الاثم ، وأتيان
الفضيحة ، وأنها تتنافر مع اسمى الطبائع الاخرى ، هي الطبيعة الجنسية .
غير أن الهرب من هذه الطبيعة أو تجاهلها أو حبسها يعود على الصحة
العقلية بالاضرار الجسيمة . وقد درس علماء النفس والتربية حالات كثيرة
كان من سوء حظ التلاميذ فيها أن والديهم قد أعمى عيونهم التعصب
والتمسك بالتقاليد البالية ، وعدم التسامح الناتج غالبا من اختبارات جنسية
سيئة - وكان نصيب أولئك التلاميذ الخيبة وسوء العاقبة .

يتوهم البعض أن الطفل قبل سن البلوغ برىء من الطبيعة الجنسية ،
لا يشعر بها . غير أن العين التي ينظر بها الطفل إلى هذه الطبيعة منذ
ولادته الى سن الخامسة ، والمسلك الذي يسلكه تجاهها ، والعناية التي
يوجهها والده نحوها ، هي التي ترسم له في الطريق مستقبل حياته فيما يتعلق
بهذه الطبيعة . والطفل منذ نعومة أظفاره - ذكرًا كان أو أنثى - يشعر
بهذه الطبيعة كما يشعر بالجوع والالم . وأكبر عامل في التربية الجنسية هو
مسلك الوالدين إزاء الطفل تجاه الشعور الجنسي ، لان كل حركة أو
أشارة أو قول أو عمل يأتيه الوالدان أمام الصغير ، يرسم في ذهنه
ويسجل في نظامه العصبي .

ومن واجبات الوالدين أن يعلموا ان كل شعور جنسى ، وكل ظاهرة
جنسية تبدو من الطفل دليل على أنه مخلوق طبيعي ، تام الخلقة وذلك مما
يزيد في اغتباطهما وسرورها

غير أنه ينبغي لها فوق ذلك أن يدخرا المعلومات العلمية النافعة التي تعينها على فهم الطبيعة الجنسية في الطفل منذ ولادته الى ما بعد سن المراهقة . ولندرس الآن أطواراً اربعة تمر على التلميذ في حياته :

أولاً — الطور الاول وهو الطور الذي تتجه فيه ميول الطفل ورغبته الى ذاته وهو يعتمد في هذه الفترة على شعوره واحساسه في اشباع طبيعته الجنسية لأن الاشياء الخارجية لا تجذب نظره اليها من هذه الناحية . ويلاحظ على الطفل في هذا الطور مص الابهام ، وحك الفخذين بعضها ببعض ، و « جلد عميرة » . ولا يخفى أن الطفل يفعل هذا كله وذنه خال من الطبيعة الجنسية . وكل من هذه الاعمال وأمثالها قصيرة المدى لا تدوم طويلاً ، وهي المنفذ السهل الطبيعي الذي بواسطته يشبع الطفل هذا الميل الخفي فيه . وسرعان ما تستبدل بأشياء (وألعاب) خارجة عن ذاته . وعلى الوالدين ألا يتدخلوا تدخلاً مباشراً في ميول الطفل الطبيعية في هذا الدور ، بل ينبغي لها أن يمهدا له كل سبيل ، حتى يحولا تيار هذه الميول الى أشياء خارجية عنه .

وتدخل الام في ما يأتية الطفل من مص الابهام مثلاً بمنعه من تكوين عادة التخلص من هذا العمل وما يماثله ، وتحرير ذاته من سيطرتها عليه . ولتعلم ان مص الابهام ، وحك الفخذين ، و « جلد عميرة » عند الاطفال ليست بعبادات ولا تكون كذلك الا اذا تدخلنا في أمرها تدخلاً مباشراً

وأظهرنا عدم رضاها عنها ، كزجر الطفل أو عقابه أو تغطية يديه . ولا يغيب عنا أن الطفل في السن التي تسبق السن المدرسية ، يلجأ إلى هذه الاعمال أشباعاً لطبيعته خصوصاً في الاوقات التي يستولى عليه فيها التعب والاستياء والفشل ، ولذلك يلزم أن نرسم له خطة يومية تجنبنا لهذه الصعوبات

وسرعان ما يأخذ الطفل في فهم ذاته تدريجاً ، ويرغب في مقابلتها بالغير ، والسؤال عن الفروق الجنسية بين الصبي والبنت . ولا بد لكل طفل بين الثالثة والخامسة من عمره أن يمر بهذا الطور ، طالما كان طفلاً طبيعياً ، عادياً تام الخلقة . ولا بد أن يدفعه حب الاستطلاع الى التساؤل عن أسماء اعضاء الجسم ووظائفها ، وسبب اختلافها في الاناث عن الذكور . ومن الخطأ أن تشعر أمام الصغار بشيء من الحياء والحجل ، أو أن تشعره أن هناك ما يدعو الى الاستحياء والتردد والحذر ، بل يجب أن نجيب عن أسئلته في صراحة تامة ، وأن تكون أجابتنا مستوفاة سهلة التعبير حتى لا يفوت الطفل شيء منها

ومن الاسئلة التي لا مفر من أن يوجهها الأطفال هي منشأ المولود ، ومن أين جاءت أخته الصغيرة التي ولدت أمس ، أو أول من أمس وأين كانت قبل ولادتها ، وكل ما يدور حول هذه النقطة . وليعلم الوالدون أن الطفل الذي لا يخطر له هذه الاسئلة ، اما أن يكون شاذاً ، وهذا

نادر جداً ، أو أن يكون قد أدرك لأسباب ، أو فطن من تلقاء ذاته من حوادث تافهة مرت عليه أن مثل هذه الاسئلة غير مرغوب فيها ، وأن التحدث في هذه المسائل لا ينظر اليها بعين الرضا . وتكون النتيجة التي لامفر منها ، هو أن يسعى سرا للاستطلاع عليها من الغير ، والا فإذا كانت اختبارات من هذه الوجهة قد سببت له شيئاً من الاستياء أو المضايقة ، فإنه يحبس هذه الاسئلة والمشاعر في صدره ، فتبقى مكتمومة دفينه حتى تنفجر يوماً وتكون عواقبها وخيمه .

ن جميع الاسئلة التي يوجهها الاطفال إلى الغير بخصوص تكوين جسمه وأعضائه ، وما يتعلق بأجسام اخوته وإخواته ووالديه ينبغي أن تكون الأجابات عنه عرضية ، صادقة ، صحيحة ، صريحة ، كاملة ، كما لو كانت خاصة بالنوافذ والابواب والموائد ووظائفها . ويقول علماء التربية من الاوربيين والامريكيين أنه من الخطأ ان نستعيز بأسماء اصطلاحية لأعضاء الجسم غير أسمائها الصحيحة ، بل يجب أن نذكر للأطفال في غير استحياء أسماء هذه الاعضاء ، حتى أعضاء التناسل منها ، كما هي ، لأن الطفل سيدرك عاجلاً أو آجلاً من مصادر أخرى أن هناك اسماً حقيقياً لهذه الاعضاء وان والديه تعمدوا غشه أو خداعه بأخفائها عنه لسبب ما . ووقوف الصغير على معرفته هذه الاسماء البسيطة تسهل عليه معرفته وظائف الاعضاء ، والوقوف على المعلومات التي يريدونها . وكثيراً ما يكتفي الطفل بجواب بسيط ، مختصر ، صريح ، فإذا قيل له مثلاً ان المولود ينمو

قبل ولادته في داخل أمه فانه يقنع بهذا جوابا عن السؤال : من أين أتى؟ وإذا سأل أسئلة أخرى فيلزم أن تكون الاجابات عنها صريحة وصادقة كذلك . وعلى الوالدين أن ينتظروا سلفا انهم سيواجهون هذه الاسئلة فيجدر بهم أن يأخذوا لها العدة . وليوقنوا ان أطفالهم الصغار ، اذا لم يبادروهم بهذه الاسئلة قبل حلول الزمن الذي يلتحقون فيه بالمدرسة لاول مرة ، فلا بد انه مر عليهم حوادث عرضية منعتهم من تقديم هذه الاسئلة اليهم ، والشعور بعدم لياقتها . وقد تكون المرضعة سببا في ذلك . وقد يكون الخادم او الاطفال الآخرون في الشارع . وفي هذه الحالة يجب أن يفتح الوالدون الباب بكل سياسة وبطريقة عرضية ، حتى يقودوا الصغير الى ولوج الباب وطرق الموضوع ، وبهذه الطريقة يصلحون ما يكون قد أفسده الخدم والمرضعات ، وما يحتمل أن يكون قد تسرب الى الطفل بواسطتهم من المعلومات الفاسدة أو غير الصحيحة .

وتعويد الاطفال الولوج بالنباتات والحيوانات وتربيتها ومشاهدتها تتناسل وتنمو ، من أحسن الوسائل غير المباشرة لتعليم الاطفال دروس الفروق الجنسية والتناسل . وقد ذكرنا شيئا عن طريقة الاستاذ أوفيدد كرولى في بلجيكا ، وكيف أنه يجعل تربية الحيوانات الداجنة الزامية لكل التلاميذ . وفي مدارس رياض الاطفال المصرية يلجأون الى هذه الطريقة غير المباشرة اجابة عن أسئلة الاطفال غير أن الكثيرين من علماء التربية يوثرون أن تتخذ الحيوانات كمرحلة ثانية ، وأن تكون

الاجابات المباشرة هي المرحلة الاولى . وذلك لأن الطفل يهمله أن يعرف قبل كل شيء من أين جاءت أخته الصغيرة التي « ولدت » منذ بضعة أيام وكيف أنهم لم تجيء قبل ذلك اليوم ، وأين كانت إذاً ؟ ومتى أجيب عن هذه الاسئلة جيداً فلا بأس من دخول المرحلة الثانية وهي تقديم بعض الحيوانات الداجنة اليه ، كالحمائم مثلاً ، وتكليفه اطعامها والاعتناء بها ، لانه بهذه الكيفية لابد أن يشاهد كيف تتناسل وتلد . ومن ثم يعلم أن الانسان مثله مثل الحيوان والنبات .

ثانياً — ويمكن ان يقال إن الطور الثاني يشمل السنوات التي بين السادسة والثانية عشرة . ويأخذ الطفل في هذه الفترة أن تتجه ميوله الجنسية الي والديه بعد ان كانت مرتكزة في ذاته ، وتكون عادة هذه الميول من قبيل ميل الجنس لجنسه عند الاناث أى ان البنت تميل بطبيعتها الي امها (ميلاً منشأً جنسى) . وقد تنقلب الآيه أحياناً وهذا نادراً جداً ، وهو ما يسمونه في علم النفس بمسألة أوديب المعروفة في اللغات الاوربية لعبارة Odipus Complex المشهورة . وقد كانت معروفة منذ عهد الاغريق ولا بد أن يذكر القراء رواية أوديب الملك التي كان يمثلها جورج ابيض وهي من وضع الفيلسوف سوفكليس . وتنسب هذه الظاهرة الشاذة الى اليوم لبطل هذه الرواية . وقد ظهرت في انجلترا سنة ١٩٢٨ رواية من هذا القبيل فصادرتها الحكومة الانجليزية ولكنها سرعان

ما أعيد طبعها في باريس بالانجليزية ثم وضعت منها سنة ١٩٣١ رواية
تمثيلية دامت على مسارح تلك المدينة زمنا ليس بقصير
ونكرر القول أن الطفل لا يدرك معنى هذا الميل ولا يفكر فيه وغاية
ما في الامر أن أصله يرجع للطبيعة الجنسية . ويكون التفكير في المسائل
الجنسية عند الطفل في السن التي بين السادسة والثانية عشرة أقل منها
في أية سن أخرى لان جل اهتمامه يوجه الى اللعب والمدرسة وغير ذلك
من الاشياء الجديدة عنده . وقاما يفكر في توجيه الاسئلة عن أعضائه
الجنسية إلى والديه . ولكن هذا لا يتم إلا إذا كانت العناية بتربيته
الجنسية تامة ، صريحة صادقة ، في الفترة السابقة للسنة السادسة من سنه ،
أما إذا اضطر الطفل لسوء تربيته قبل السنة السادسة أن يحبس ميوله ،
ولم يجبه أحد عن أسئلته إجابة طبيعية خالية من التصنع والحياء ، فانه يميل
عادة الى حب الاستطلاع والتفكير في المسائل الجنسية في السن التي تلي
السادسة — أى إلى الثانية عشرة

وبالاختصار يجب أن يعنى المربون والوالدون بهذه الفترة التي قبل
السنة السادسة فتكون مسالكهم أمام الطفل ، فيما يتعلق بالامور
الجنسية حميدة ، وأن يتوخوا الصراحة والصدق ، وألا كانت
العاقبة وخيمة .

ثالثا ورابعاً — وبين الطور الثالث والرابع فترة قصيرة تختلف
 باختلاف الافراد . ويبدأ هذا الطور بعد الثالثة عشرة ويقال له سن

المراهقة أو البلوغ وهي السنة التي يأخذ فيها الطفل في النضوج ، وهي حلقة الاتصال بين الطفولة والرجولة . وفي خلالها يبدأ الصبي أن يشعر بالتغيرات الجثمانية التي تحدث فيه . فصوته يأخذ في الخشونة ، وشعره ينبت في نواح كثيرة من جسمه ، وتزول عنه الملامح الانثوية التي كانت تلوح عليه في طفولته . ويشب نحو الرجولة في كل شيء . وكذلك الصبية تشعر بتغيرات كثيرة في جسمها .

ولا فرق بين الطور الاول والطور الثاني سوى أن الطفل في الطور الاول يميل لجنسه وفي الثاني يميل لغير جنسه أى أن الذكور يوجه ميوله في بادئ الامر الى الذكور ، والانثى الى الاناث . وهذا أمر طبيعي لا غرابة فيه . أذ في السنة السابقة لفترة البلوغ يكون الصبيان أكثر معاشرة واختلاطاً بالصبيان والفتيات بالفتيات ، فيستمر ما تمكن بين كل منهم من الصداقة والميل الى ما بعد البلوغ . ونظراً للجهل بمبادئ التربية في هذه الفترة ، وعدم فهم الحالات النفسية من جهتي الوالدين والمعلمين يستمر الاطفال في الطور الاول أحياناً زمناً طويلاً ، وفي حالات استثنائية قد يبقى هذا الميل منهم طول حياتهم . وقد ذكر أدلر (من أشهر علماء النفس في النمسا) أن الناس من هذا القبيل تتراوح نسبتهم من اثنين الى ثلاثة في المائة وتكون هذه النسبة أعلى بكثير في مثل بلدان تركيا ومصر وسوريا وفلسطين والعراق والحجاز وفارس وافغانستان نظراً لعدم اختلاط الجنسين

ويمكن تلخيص هذه المراحل الاربع في ما يأتى . (١) فى المرحلة الاولى تتجه ميول الطفل الجنسية الى ذاته ، ويعبر عنها باسم « مرحلة النرجس » وهذا التعبير يرجع عهده الى اسطورة قديمة ملخصها أن انساناً عجيباً (او الهآ) خلق على صورة النرجس ، فنظر يوماً الى الماء ولما ان رأى خياله فتن به وعشقه ، وهو لا يدري أنه ينظر إلى نفسه . وهام بخياله حتي كان يقضى معظم وقته على الشاطئ للنظر الى معشوقه (٢) فى المرحلة الثانية تتجه ميوله الى والديه وفى العادة يكون هذا الميل نحو الام ورواية أوديب الملك تشير الى ذلك كما سلف القول (٣) فى المرحلة الثالثة يميل الذكور الى الاناث والاناث الى الاناث (٤) وفى المرحلة الرابعة يميل الذكور الى الاناث والاناث الى الذكور

لنعد الآن الى سن المراهقة فنقول ، أن الطفل فى هذا الطور يكون شديد الشعور بذاته ، كثير الحياء ، كثير الارتباك ، ميالا الى العزلة ، تواقاً الى الوحدة والخلوة . وفى بعض الاحايين يتقهقر الى الوراء فى أعماله المدرسية . وكثيرا ما يكون الصبي أو الفتاة عرضة للتأثر والانفعال الشديد لاقبل حادث ، والى هذا يعزى دقة شعورهما ، وشديد إنفعالهما . اذا ما طرأ على أقاربهم أو والديهم أو أصدقاءهم طارئ ، مهما كان تافهاً . ويرجع سبب هذا كله الى التغيرات التى تطرأ على أعضاء التناسل استعدادا للقيام بوظيفتها . وهذه المرحلة التى يجنى فيها الناس على البنت والابن

بالمعلومات السخيفة الكاذبة التي يسوقونها اليهم ، عن حسن ظن وجهد
وسداجة . فطوراً يؤنبونه على جنوحه الي العزلة والحياء ، وطوراً
يزجرونه اذا ما تأخر في أعماله المدرسية . وتارة ما يحذرونه من ميوله
الجنسية — رغم كونها أهم حادث يشغله في حياته في تلك السن —
ويخيفونه بأشياء وعواقب جثمانية وعقلية واخلاقية ، ما أنزل الله بها
من سلطان

أما العقلاء من الوالدين فهم الذين يمدون بنينهم وبناتهم بالمعلومات
الصحيحة الخاصة بالتربية الجنسية ، والصحة الجنسية والتناسل ، عند
ما يجدون أنهم على أهبة الدخول في هذه المرحلة . والعقلاء هم الذين
يفسرون لاطفالهم هذه المشاعر ، كأن يقولون لهم أن هذه الظاهرة التي
تليهم عن دروسهم وألعابهم وغيرها من الاشياء ، والتي تسبب لهم هذا
الحياء والارتباك ، إنما هي مرحلة يعبرها جميع الناس في حياتهم

وينبغي على الوالدين أو من يقوم مقامهم أن يتجنبوا كل ما يثير
العواطف والحساسية أمام أطفالهم ، والا يكون تعلقهم بهم بالغاً الدرجة
التي قد تمنع نموهم وانتقالهم الي المرحلة الاخيرة ، مرحلة النضوج . ومما
يلاحظ أن كثيراً من الوالدين لم يوفقوا في عيشتهم الزوجية واشباعا
لِعواطفهم يوجهون كل عنايتهم وعطفهم إلى أولادهم ، ويسرفون في هذا
العطف كل الاسراف ، ويغرقون فيه كل الاغراق ، حتى يتجاوز الولد

سن البلوغ وهو في حركاته وسكناته وأطواره دونها ، ذكرنا كان أو انثى .
إن واجب الوالدين أن يغدقوا على أولادهم ماشاءوا من العواطف في
حدود المعقول ، كما إن واجبهم أيضاً تحريرهم منها تدريجياً

ومن المشاكل التي يواجهها الشبان والشابات الرغبة الشديدة في
إشباع العاطفة الجنسية بما يسمونه العادة السرية وآخر آراء الاطباء
وعلماء الفسيولوجيا والنفس أن هذه العادة لا تسبب ضرراً للجسم ولا يتأني
عنها اضطراب في العقل ، اللهم إلا إذا بلغ صاحبها حد الافراط : غير أن
ضررها ينجم من أن صاحبها يتوهم أنها مؤدية للانحطاط في القوى البدنية
والعقلية ، والموت الادبي . ومنشأ هذا الوهم الخرافة التي طالما اتخذها
السكران والمعلمون حديثاً طلياً ، وهي أن العادة السرية تضعف البصر ،
وتنخر العظام ، وتذهب بالعقل ، وأن مستشفيات الامراض العقلية ملائى
بفرائسها . ولا يكاد يسمع الشاب هذه المخاوف وهذا التهويل والمبالغة
وكل الشبان تقريباً من مرتكبيها — حتى يزداد عزلة وابتعاداً عن الغير
ظناً منه أن الناس متى نظروا اليه عن قرب ، كشفوا أمره وعلموا أنه من
مدمنى هذه العادة الشنعاء ، وأنه أقل من زملائه منزلة ، وقد تكون هذه
الالوهام سبباً في اعتلاله واضطراب نفسه . وينتج أحياناً أنه يلجأ إلى
تخيل مثل عليا في الطهارة ونسيان العاطفة الجنسية ، تقوده فيما بعد الى
اختلال في الطبيعة الجنسية .

وخير ما نستطيع عمله هو أن نمهد للاطفال قبيل سن البلوغ الالعب
وضروب التسلية ، والاختلاط جماعات ، تحت إشراف من يفهم الطبيعة
البشرية ، والنصح المعقول ، والعطف والفاء الدروس المفيدة والمعلومات
الصحيحة ، والاقلاع عن التهويل والتخويف ، وتوخي الصراحة والصدق
فيما يختص بالعاطفة الجنسية



صناعة « الكلام »

من المظاهر الخارجية السكالية التي تهتم المعاهد الامريكية بمراعاتها في المعلم حسن المنظر والهندام أولاً واجادة الكلام ثانياً . وأقول « كمالية » لاننى أعتقد أن الامريكيين لم يشرعوا في الاهتمام بها الا بعد أن استنفدوا عدة مجهودات في نواح أخرى كثيرة . غير أنهم يعدون هذين الامرين من أهم الصفات التي تكون الشخصية والتي أشرنا اليها في المقال الذي عنوانه « المعلم وعدته » . ولم يكن اهتمامهم مبنياً على أساس الخيال ، بل نتيجة اختبار وبحث . فقد وجد بالمشاهدة أن تلاميذ المدارس الابتدائية وطلبة المعاهد الثانوية والعالية يتأثرون من مظهر المعلم الخارجى وحسن القائه . فاذا توافرت فيه صفات المعلم الحقيقية واكتملت فيه هاتان الصفتان كان معلماً خليقاً بالاشارة اليه بالبنان .

وفي خلال زيارتي الاولى لامريكا كان بعض الطلبة في مدارس المعلمين ووكلياتها يقبلون على دروس الخطابة . أما الان فان الاقبال على دروس صناعة الكلام شديد جدا . ولما أن كثر عدد المعلمات والمعلمين الذين درسوا هذا الفن ، أدخل في جميع المدارس الثانوية ضمن مناهجها . والغرض منه تحسين الصوت فى الكلام المعتاد والقاء الدرس ، فيما يتعلق

بالشدة والارتفاع والانخفاض والسهولة والاستمرار والعذوبة . وقد أصبح لهذا العلم أساتذة فنيون وسيدات فنيات وصنفت فيه مؤلفات عديدة . وليس من السهل بلوغ النجاح في هذه المادة نظرا لحداثة سننها وصعوبة طرقها . غير أن سماع المحاضرات فيها من معلم ماهر أو سيدة نابغة لا يقل لذة عن سماع الألحان الموسيقية من موسيقى حاذق .

ويوجد في مكتب الاستاذ المختص بهذه المادة عادة جهاز كهربائي كبير لاعداد الاسطوانات المعدنية التي تسجل عليها أصوات الطلبة عدة مرات في اثناء الدراسة حتى تقارن أصواتهم وكلامهم قبل البدء في الدراسة وفي خلالها وفي نهايتها ومقدار النجاح الذي يصيبه الطالب يحدد الدرجة النهائية التي تعطى له نجاحا أم رسوباً .

وهذا الجهاز غريب جدا ونافع للغاية مع أن ثمنه لا يتجاوز الف ريال وذلك لان به ثلاثة أشياء موضوع الواحد بجانب الآخر فيه . الاول لاسلكي والثاني جهاز لالتقاط الصوت فوق اسطوانة والثالث حاك (فونوغراف) معتاد . فاذا فرض أن مغنيا مشهورا سيذيع نشيده في ساعة معلومة سبق النشر عنها (وهذا يحدث في أمريكا من الساعة الثامنة صباحا الى ساعة متأخرة من الليل يوميا) وتريد أن تحتفظ بصوته الرخيم ولحنه البديع فما عليك الا أن تضع اسطوانة معدنية (ثمنها عدة مليات) بجانب اللاسلكي في الجهاز المشار اليه ، وتضع عليها ابرة مخصوصة معدة لذلك . وعند نهاية الدور تستطيع رفع الاسطوانة ووضعها في الفونوغراف

الموجود في الجهاز كما سبقت الإشارة ، فيمكنك أن تسمعها مثنى وثلاث ورباع في أى وقت تشاء وهكذا اذا شئت أن تسمع خطبة رئيس الجمهورية وتحفظ بها . وكثيرا ما نريد أن نحفظ هنا بدرس القاه أستاذ مشهور امام فرقته واذا به بالاسلكى ، فما علينا الا ان نسجل الاذاعة في الوقت عينه بالطريقة السالفة الذكر . ومن الغريب انك عندما تقرأ عبارة او تتحدث حديثا معتادا امام هذه الالة بقصد تسجيله في الاسطوانة تستطيع ان تشاهد بعينك الابرة تعلو وتنخفض وتتذبذب وتضطرب او تسير على وتيرة واحدة فوق دائرة مبينة على محيطها الارقام ، والمعالم الى جانبك تشير الى مواضع الضعف والخفوت والشدة والارتفاع تبعاً لما تشير اليه الابرة من هذه الارقام . وماتكاد تأتي على آخر العبارات في نهاية الاسطوانة من جانبيها ، حتى ترفعها المعلمة من مكانها وتضعها في المكان الذي بجانبها وهو الحاكي (الفونوغراف) - فتسمع صوتك يعيد كلامك الذي لم يمسح على تسجيله سوى دقائق او ثوان معدودات . ومن الغريب ايضاً ان المعلمة تستطيع ان تضغط زراً امامها فيتضاعف صوتك وتظهر فيه غلطاتك مكبرة كما تظهر دقائق الرسم تحت المجهر

ما العيب في مدارسنا

شهدت منذ أيام حفلة « أدبية » لطلبة كلية راقية من كلياتنا المصرية العالية ، وكان غرض الحفلة مساجلة في موضوع اجتماعي كبير/ وودعى اليه كيران لتولى البحث فيه ، أحدهما للدفاع عن الوجه الايجابي والآخر عن الوجه السلبي ، كما دعى اليه طالب لتأييد فريق ، وطالبة لتأييد الفريق الآخر . وقد أقيمت الحفلة في مدرج كبير يسع أكثر من خمسمائة شخص بقليل ، وكان عدد الحاضرين يربى على ستمائة ، معظمهم من الطلبة والباقي من غير الطلبة ، وبين هؤلاء نحو خمسين من الاوانس والسيدات وكنت لا أحسب قبل اليوم الذي شهدت فيه الحفلة ، أن القوضى وسوء النظام والعيب الخلقى بجميع مناحيه ، ومرض الذوق والرجعية ، تبلغ من نفوس شببيتنا ما بلغت في هذا المجتمع . ومما زادنى المأ واستياء ، أن الحفلة قام بوضعها وتنظيمها وإدارتها الطلبة أنفسهم ، بغير أن يتدخل في أمرها أحد من الاساتذة أو رجال إدارة تلك الكلية

ومما زادنى أسفاً أيضاً أن الطلبة - وهم أغلبية الحاضرين - لم يراعوا واجب المجاملة الجنسية . بل كانوا يجاهرون بنكات سخيفة ، ومزاح جارح ، ومجون بارد ، ولفظ قبيح ، يندى له الجبين خجلاً ، بالرغم من حضور عدد وافر من الجنس اللطيف من سيدات وأوانس بناء على دعوة القائمين بشئون الحفلة

وما كان النظام في هذه الحفلة ينم عن عيب جوهرى في نظام التعليم

في مدارسنا المصرية ، وعلى الاخص الثانوية والابتدائية منها ، فقد رأيت أن آتخذ هذه الحادثة وهي ليست الأولى من نوعها ، سلهماً أرتقى به الى تأييد آراء وابحاث ومبانيء ، طالما نادينا بوجوب اتباعها ، وأسهبنا في تعداد مناقبها ولزومها في بناء أسس مدارسنا

أقول معاهدنا الثانوية والابتدائية ، لان الكليات العالية معاهد فنية ، تقتصر وظيفتها ، على تدريب الطلبة على استيعاب الحقائق والمبانيء والأعمال التي تتصل بالمهن التي يستعدون لها اتصالاً مباشراً . أما العادات والخطط والمبانيء الخلقية وروح الجماعة والتعاون وتهذيب الغرائز على اختلاف أنواعها — كل ذلك من عمل المدارس الثانوية والابتدائية

اذن فنحن لا نعيب الكلية أو الكليات التي ينتمى اليها أصحاب تلك الحفلة المشؤومة التي أخفقت اخفاقاً معيباً

وأذن فنحن لا نعيب الطلبة أنفسهم الا قليلاً

غير أننا نلتقي تبعة اللوم برمتها على مدارسنا الثانوية والابتدائية ، على نظم التعليم ، على مناهج الدراسة ، على الاستذكار والحفظ ، على خزن المواد المتراكمة ، على اتخاذ الدروس في ذاتها غاية لا وسيلة ، على أهمال الناحية الاخلاقية العملية ، وأعني بالعملية التي لها اتصال مباشر بالحياة ، أى بالتعاون ، بتنظيم الأشياء ، بمراعاة شعائر الآخرين ، بحب الغير ، بالعمل مع الغير ، باحترام آراء الآخرين ولو كانوا مخطئين أو مخالفين لما نعتقد ، باحترام الرؤساء أو من بيدهم ادارة الحفلات أو الاعمال ، وان كانوا أقل منا دراية ومنزلة ، بالخضوع للقوانين والمحافظة عليها ، حفظاً

النظام بالاستعانة باخواننا الذين ينتمون لجماعتنا ، باحترام الاعمال التي
ننشط بها وأن كانت يدوية

٧.٥.٥
أن مدارسنا تخرج أفراداً لا يصلحون إلا أن يعيشوا في عزلة من

الناس والمجتمع ، أن مدارسنا تخرج شبانا مجردين من التعاون ،

والتعاقد ، وآداب الاجتماع ، ومراعاة النظام

وقبل أن نلخص الطريقة التي تستخدمها المعاهد الثانوية والابتدائية

الراقية الحديثة توصلنا الى النتيجة الحسنة في تخريج شبان مهذبين متقنين

عاملين ، يجدر بنا أن نسردها هنا بعض العيوب التي شاهدناها في الحفلة

المشؤومة ، بغير تفصيل ولا تعليق حتى يدرك القارئ من خلال السطور

محاسن الطريقة الحديثة في نظام التعليم اليوم في أوروبا وأميركا : —

✓ (١) لم تخصص لجنة الطلبة مكاناً للسيدات واضطرت أن تجلسن في

مقاعد وضعت على عجل في مدخل القاعة ، فكان هدفاً للخارجين والداخلين

والواقفين على الاقدام . وهذا مما يدل دلالة واضحة على أن هؤلاء

الطلبة لم يتعلموا تنظيم المسائل ، ووضع التصميم لما يريدون القيام

به مقدماً

(٢) كانت لجنة الطلبة تحاول المحافظة على النظام ولكن بقية الطلبة

كانوا يشاكسونهم ويعاكسونهم ويأخذون منهم الكراسي الامامية

عنوة ويرمونهم بالشتائم وقوارص الكلام . وقد كنت هناك قبل الميعاد

بنصف ساعة شاهدت فيها هذه العملية الخزية تتكرر كل دقيقة ، وهذا

مما يدل على أن الطلبة لا يحترمون اللجنة التي اختاروها بأنفسهم منهم

ولم يتعودوا احترام اخوانهم المكلفين إدارة شئونهم ، ولم يتعلموا

الحروف الهجائية من دروس التعاون الأولية

(٣) كان الطلبة الحاضرون وهم اصحاب الدعوة لا يستقرون في مكان واحد بل ينتقلون من مقعد الى مقعد ، ويقفون في مدخل القاعة ويملاؤن الممرات والمسافات التي بين الكراسي ، مما جعل المرور متعذراً والنظام مستحيلاً . وهذا يدل على أن الطلبة لم يتعلموا حب الخير والتفكير في مصلحة المجموع ، فضلاً عن ميلهم الى تشجيع القوضى

(٤) انهم لم يستطيعوا ضبط عواطفهم ، وتحكيم عقولهم فقد حكموا في المساجلة قبل ان يبدأ المتساجلون ، وقرروا آراءهم قبل سماع المتناظرين ، وعقدوا الخناصر على معاكسة مخالفاتهم في الرأي حتى أصبح الخطباء مهددين بالصفير والضوضاء كل بدوره . وهذا يدل على عدم احترام آراء الآخرين وعدم مراعاة آداب الكلام والخطابة والمناظرة

(٥) أنهم اساءوا الى المرأة وعرضوا بها وسخروا بمنزلتها ، خصوصاً بالطالبة الخطيبة ، رغم بلاغتها في التعبير وفصاحتها في الالتقاء وقوتها الخطابية ووقفها المؤثرة - فكانهم لا أمهات لهم ولا أخوات ولا عمات ولا خالات

(٦) أنهم كانوا رجعيين في تفكيرهم وشعورهم فقد كانوا يتأففون ويتذمرون في مواطن كثيرة في أقوال بعض الخطباء مما يدل على أنهم لا يسايرون في آرائهم العصر الحاضر . ولو صدر هذا التأفف من جماعة من الرعاع أو متوسطي المعرفة لما كنا نستغرب ذلك . أما والسامعون من طلبة كليتنا العالية الذين سيكونون قادة أفكارنا في المستقبل ، فهذا مما يؤسف له

وفوق هذه الرجعية المتطرفة فانهم لم يكونوا منطقيين في تفكيرهم
فقد كان احد الخطباء يدلى ببراهين وأدلة منطقية قاطعة ، وحجج دامغة
مبنية على حقائق لا نزاع فيها ومع ذلك فقد كانوا يقاطعونهم ، ولم يتعففوا
عن هذه المقاطعة وحاولوا اسكاته مرات ، ولم يتورعوا عن قذفه ومحاوله
اسكاته . وكان خطيب آخر على تقيض هذا — لا منطق في رأيه ،
ولا دليل عملي أو واقعي ، بل كانت كل أقواله قضايا ادعى انه مسلم بها
وأفكاراً زعم انها لا تقبل التأويل ولا التفسير ولا المناقشة ، فكان اذن
« دكتاتوراً » بكل ما ينطوى تحت الكلمة — ومع ذلك فقد كان
كلامه يقابل بالتصفيق لا لحجة ولا لدليل ، بل لأن كلامه صادف هوى
في نفوس ضعيفة وعقول غير راجحة . وهذا يدل على ان الشهادات
الابتدائية والثانوية بقسميها ، التي نالوها في مدارسهم الابتدائية والثانوية
ماهي الا أجارة تنبئ أنهم ألموا ببعض حقائق جافة لا تقع لها في عالم
الوجود ولا اتصال لها بالحياة .

ماهي إذاً هذه الطريقة الحديثة التي تخرج شباناً وشابات مهذبين مثقفين
غير ما وصفنا ؟

ان هذه الطريقة تشمل مناهج غير مناهجنا ، ونظاما غير نظامنا .
لقد رأينا قبل ذلك كيف ان مدارس وينتكا تربى
في تلاميذها المبادئ والعادات والاخلاق التي تنشدها ، والتي تنقص
شبيبتنا ، واننى أنصح للقارىء الذي لم يطلع على ما كتبت آنفاً ، أن
يتصفح جيداً ويقرأ بين سطوره النظم التي تخرج شبانا عاملين في

مجتمع كبير ، لا أفراداً منعزلين عن العالم والحياة .
ولست مدارس وينتسكا الا عينة واحدة للمدارس الكثيرة التي يجدر
بنا ان نتلقى عنها دروساً . ان مواد الدراسة هناك وسيلة لغاية ، والغاية
التي ترمى اليها المدرسة انماء ملكات الطفل حتى يشب رجلاً عاملاً نافعا
مدنياً محباً للتعاون .

اننا نعلم طلبتنا ايجاد مساحة قطعة من الارض ، لاجود لها الاعلى
السبورة وفي الكراسة أو الكتاب ، وهم يطلبون الى الطالب زرع قطعة
من الارض وتعهدها بالري والتفليح ومشاهدة ما ينمو فيها ويكبر
ويتزعرع ، وبعد ذلك كله يعلمونه كيف يوجد مساحتها . ألا ترى ان
ايجاد المساحة عندهم وسيلة لغاية ؟

اننا نعلم أطفالنا ايجاد حجم كتلة من الخشب أو كومة من الاحجار
لاوجود لها الا حبراً على ورق ، وهم يكلفون اطفالهم صنع مائدة أو مقعد
من الخشب ، أو بناء حائط أو منزل ، وبعد ذلك يعلمونه ايجاد احجامها
أو احجام ما احتاجته من الخشب أو الاحجار

نحن نطلب الى طلبتنا التكلم عن صنع السجاجيد وفوائدها ، بالكتابة
عنها في غرف الدراسة ، في الساعة المخصصة للانشاء ، وهم يكلفون الطلبة
زيارة مصنع للسجاجيد ، يغاب أن يكون في المدرسة التي هم فيها ، ثم
يطلبون منهم وصفه ، كما رأته أعينهم .

تعال معي الى حجرة دراسة في مدرسة ابتدائية حديثة . ماذا ترى ؟
مائدة طويلة عليها كتب كثيرة من مكتبة المدرسة ، يرجع اليها
الاطفال ، حتى يتعودوا الاطلاع والدرس والبحث متى كبروا . مقاعد

متحرّكة ، يستطيع الأطفال وضعها بالكيفية التي يطلبها الدرس . فتارة
توضع بشكل دائرة أو نصف دائرة ، حتى تتمكن المعلمة من الجلوس
وسطهم لسماعهم يتحدثون ويتعاونون على عمل من الاعمال . وتارة تصف
المقاعد بازاء الحوائط حتى يخلو فضاء الغرفة لتمثيل حكاية سمعوها ، أو
رواية تاريخية قرأوا عنها ، أو للقيام بحركات وتوقيعات رياضية غنائية ،
أو برقص تاريخي قديم ، أو عصرى حديث .

هنا في ناحية من نواحي غرفة الدراسة تجد أصص الزهور والنباتات
على اختلاف ألوانها وأجناسها . هذه كلها قد زرعها الأطفال بأيديهم ،
وشاهدوا نموها ، واعتنوا بها وعدوها ، وعدوا البزور التي استخدمت
في زرعها ، ودونوا ملاحظاتهم على كل نبات وزهرة منها يوماً فيوماً ،
وكتبوا وتعلموا أسماءها ، ولما كمل نموها كتبوا تقاريرات عنها وبهذه
الكيفية تعلموا شيئاً من الحساب والخط والهجاء والانشاء وعلم النبات
والفلاحة وحب الاعمال اليدوية . وكذلك تعلموا شيئاً عن البلدان التي
تنمو فيها تلك النباتات وتزهر وبذلك درسوا شيئاً عن مواقع تلك
البلدان على الخريطة . وذلك قادهم الى درس شيء عن طبيعة تلك البلدان
ومناخها وربما قادهم ذلك الى درس شيء عن تاريخ سكانها . وبذلك
أضافوا درسى الجغرافيا والتاريخ .

ولكن كل هذه الدروس لم تكن الا وسيلة لغاية
وهناك دروس اخرى تعلموها وهي التعاون والعمل مع الآخرين
لانهم اتفقوا جماعات عشرة عشرة أو خمسة خمسة للزرع والدرس والكتابة

والبحث في الكتب التي على المائدة في موضوعات الازهار والنباتات
تحت ارشاد المعلمة .

وتجد في ناحية أخرى من نواحي الغرفة أطفالا منهمكين في رسم
هذه الزهور وتلوينها بالوان الطبيعة وكتابة أسمائها عليها حتى تعلق
بذاكرتهم . والمعلمة لا تتدخل تدخلا يقتل فيهم حرياتهم بل تشير اشارة
وتقترح اقتراحا وتقول أظن أنه يحسن أن تفعل كذا وكذا ، لا افعل
كذا وكذا .

وبهذه المناسبة أذكر عبارة واقعية جاءت في مجلة من مجلات التعليم
حديثا . وهي أن معلمة كانت تراقب طفلا وهو يرسم وجه رجل . فقالت
له . لقد رسمت العينين والأنف والرأس وكل شيء ماعدا الأذنين فأين هما؟
فأجاب الطفل . لا حاجة له الى الأذنين . فقالت المعلمة . ولكن كيف
يسمع ؟ أجاب الطفل . ان هذه الصورة تمثل رجلا ينظر فقط
لا رجلا يسمع !!

هذه السذاجة وهذه الاجابة تبين لنا الحرية التي تمنح للطفل في
القول والفكر والعمل

.... أنظر الى جدران غرفة الدراسة . هنا لوح كبير للاعلانات
وفوقه تجد أخبار الاسبوع مكتوبة ومصورة وموضحة بخطوط بيانية
هي أيضا من عمل الأطفال

يجتمع الاطفال من كل الفرق مرة كل يوم في قاعة كبيرة للمحاضرات
وهنا يرأس الحفلة طفل عهد اليه ترتيب جدول الاعمال . ففي بعض الايام
يتكلم طفل بالنيابة عن فرقته عن موضوع من الموضوعات التي بحثوها

في الفرقة ، وفي يوم آخر يقوم طفل آخر بنشيد أو توقيع على آلة موسيقية أو القاء خطبة أو ألخ . وهنا في مثل الاجتماع اليومي يتعلم الاطفال النظام والاذعان للرئيس والتعاون ، والصمت عند اللزوم ، والتصفيق في موطن التصفيق .

يعتقد أصحاب تلك المدرسة وأمثالها أن الاطفال كبقية النوع البشرى يتعلمون مبتدئين بالاشياء المحسوسة الى غير المحسوسة ، ومن الخاص منها الى العام .

فالتاريخ والجغرافيا يبدأ تعلمهما من المنزل والاسرة والطائفة ثم تدرج شيئاً فشيئاً الى الجهات الاخرى .

والعلوم « الطبيعية والكيميا والتاريخ الطبيعي ألخ ألخ » تبدأ بالزهور التي يشاهدها ويزرعها الاطفال ، والحيوانات التي يربونها ويألفونها ؟ والصخور والنهيرات التي يرونها بعيونهم ، والمصنوعات التي يشاهدونها في المصانع .

والحساب يتعلمونه بواسطة حل ما يعترضهم في الحياة من بيع وشراء ، مما يحيط بهم ومما يقومون بعمله فعلاً . كذلك الكتابة ، يجب أن تكون للتعبير عما نزرعه ونصنعه ونبنيه ونهدمه ونشاهده حتى تكون مبنية على أشياء عملية واقعية ، لا وهمية خيالية نظرية .

ومتى تعلم الاطفال القراءة والكتابة والحساب مع علاقتها المباشرة بالحياة كما أسلفنا ، سهل بعدئذ الاستمرار في تعلمها على حدة ، أي بغير اتصالها بالحياة اتصالاً مباشراً

وحتى يستخدم الاطفال أيديهم ، كما يهذبون عقولهم ، ينبغي أن نعلمهم الصناعات المختلفة . فمن الاطفال من يميل للنجارة ، ومنهم من يميل للطباعة أو النسيج الخ . وكما رأينا في مدارس وينتكا ، ينبغي أن تعلم الطلبة في درس التاريخ أن يقلدوا صناعة الملابس والسيوف وأدوات الصناعة كما كانت في العصر الذي يدرسونه ، وبذلك يجدون للتاريخ معنى عمليا ويتولد فيهم الشغف بالتاريخ والميل لدرسه

قام الطلبة في كلية أجنبية في القاهرة منذ بضعة شهور بتمثيل رواية عربية ، وكان التمثيل متقنا واللقاء واضحا . غير أن أحد المربين الذين حضروا الحفلة سأل أحد الطلبة ما يأتي : —

من أين أتيت بمنظر الرواية ؟

ومن قام بتعليمكم التمثيل واللقاء ؟

فأجاب الطالب : استأجرنا المناظر من أحد ملاهي القاهرة وقام بتعليمنا وتدريبنا ممثل معروف يعمل في أحد المسارح .

فهز المربي رأسه وقال يا للأسف . أن غرض إدخال التمثيل في المدارس ليس هو التمثيل في ذاته . إنما هو وسيلة لغاية لا تظهر إلا بقيام الطلبة أنفسهم بعمل المناظر ووضعها وتوزيع الادوار واتقانها ، كل ذلك تحت إرشاد أحد المعلمين ، وبذلك يتعلمون دروساً في التعاون والعمل جماعات ، ويدرسون شيئاً عن المناظر والستائر والملابس ويتعلمون كيف يعملونها ويعودونها . أما إذا اشتروا الملابس جاهزة أو استأجروها ،

واستأجروا المناظر وأحد الممثلين ، فان مثلهم يكون كمثل من يشتري شهادة البكالوريا أو الليسانس بمبلغ من المال ويعد نفسه متعلماً راقياً هذا ما نحتاج اليه في مدارسنا . أننا نظن أن تلقى الدروس المختلفة والمواد المتعددة تخلق منا رجالا ، والحقيقة أننا بعيدون عما تري اليه بعد الشمس عن الارض . أننا لفي حاجة شديدة الى تربية أبنائنا وبناتنا تربية تامة ، حتى يستطيعوا أن يخرجوا الى ميادين الحياة مزودين بعدد العمل والتعاون ومشاركة الجماعة والصبر والاحتمال واحترام آراء الغير والاستعداد لقبول الآراء الحديثة والتفكير العامي المنطقي والنظام والمهدين

أننا لفي حاجة إلى الاكثار من كتب المطالعة النافعة الحديثة حتي يقف ابناءؤنا على ما وصلت اليه الحياة في القرن العشرين ، وما بلغته الصناعة والتجارة والزراعة والفنون والمخترعات والمستكشفات على اختلاف أنواعها . فلا يكفي أن يقرأ الطلبة في العام الواحد كتابا أو اثنين ولا يسكفي أن تقتصر كتب المطالعة على الناحية اللغوية بل يجب أن تتنوع فتتناول الفنون الجميلة وأخبار الصناعات وعجائب المخترعات والافكار الحديثة في كل ما يمكن الوصول اليه

مسائل الطفولة

اتجهت أنظار العلماء القامئين بشئون التعليم أخيراً الى وجوب درس الطفولة من جميع نواحيها ، فالطالب الذى يتلقى العلم نشأ طفلاً ، قبل أن ينزل الى ميدان التعليم المدرسى ، فمن الضرورى اذا درس نفسية الطفل والعوامل التى تؤثر عليه وغرائزه ومدى رعايته والعناية به ، حتى اذا ما ألمّ المعلم بمسائل الطفولة وكل ما يتعلق بها ، سهل عليه تخير الخطط القويمة والوسائل الفنية اللازمة التى تمهد للناشئين سبل التربية على أحسن منوال

ولعل الباعث القوي الذى دفع كبار رجال التعليم الى تعليق أهمية عظمى عن هذا الموضوع ، هي التجارب العملية والابحاث العميقة التى قام بها علماء النفس فى خلال السنوات العشرين الفائتة خصوصاً منذ شبت نار الحرب العظمى ، كما سيأتى فى سياق الكلام

وقد فحست مجلة سكول ريفيو الاميركية عن مناهج مئة وخمسين معهداً علمياً من درجة الكلية ، ودرسها فيما يتعلق بموضوعنا وذكر كرت النتيجة فى عدد يناير سنة ١٩٢٨ كما سيأتى : —

« بين المئة والخمسين كلية أمريكية التى أطلعنا عن مناهجها ، توجد مئة كلية من التى تشمل المواد التى يتلقاها الطلبة فيها ، مادة واحدة على

الاقبل في مسائل الطفولة . وتنوع المواد التي تدرس في هذا الموضوع بتنوع الكليات ، ف ٥٥ ٪ من الكليات يهتم بتدريس سيكولوجيا الطفل ، ١٣ ٪ منها يلقى درساً في رعاية الاطفال ، و ٨ ٪ يهتم بتدريس التعليم الابتدائي ، و ٤ ٪ يلقى دروساً في التعليم الابتدائي . وفي المدارس الخاصة بالبنات فقط و ٢٥ ٪ يلقى دروساً في تربية الطفل والاعتناء به

« ولعل أهم ما تقوم به بعض هذه المعاهد فيما يختص بدروس الطفولة المعامل العلمية التي تجهزها للطلاب ، ويوجد الآن في ٨ ٪ من هذه المعاهد معامل فنية تمكن الطلبة من عمل تجارب توصلهم الى درس مسائل الطفولة درساً مبنيًا على المشاهدة والمقاييس العلمية الدقيقة ، كما يدرس غيرهم الطبيعة والكيمياء وعلمى النبات والحيوان في معاملها » ودل الاحصاء على أن توزيع الدروس الخاصة بمسائل الطفولة بين معاهد البنين والبنات كالآتي

٨٨ في المائة من المعاهد الخاصة بالبنات فقط تشتمل مناهجها على مسائل الطفولة و ٧٣ في المائة من المعاهد المشتركة بين الجنسين (أى التى يتلقى فيها البنون والبنات دروسهم معا) تقوم بتدريس هذه المادة

١٩ في المائة من معاهد البنين فقط تقوم بدريسها « ويتضح من هذا أن مدارس الذكور أقل اهتماما بدروس مسائل الطفولة من مدارس

الاناث ، وهذا مما يؤسف له ، فإن الرجل والمرأة في الحياة سيان في الحاجة الى درس مسائل الطفولة »

ولهذه المناسبة أذكر للقراء أشهر وأحدث ما كتب في هذا الموضوع ، هو كتاب ظهر في خلال هذا العام للعلامة الاستاذ دكتور وطن ، صاحب كتب علم النفس ذائعة الصيت التي تتبع مذهب السلوكيين والبروفسور وطن ، أستاذ علم النفس في جامعة جون هو بكنز بأمریکا سابقا ، وكتابه المشار اليه ليس نتيجة الظن والتخمين والتعليق على كتب السلف هو نتيجة ابحاث فنية وتجارب علمية قام بها مع أساتذة آخرين من مساعديه كالآتي : -

أولا - في مستشفى للولادة خاص حيث عدد الاطفال الذين يولدون شهريا حوالى خمسين ، كان الاستاذ ومساعدوه ، بعد ولادة الاطفال فورا وغسلهم والباسهم ، يأخذهم الى معمله انسيكولوجى للمشاهدة والمراقبة والفحص .

ثانياً - في مستشفى جامعة جون هو بكنز الملحق بكلية الطب فيها كان يفحص يومياً عن خمسمية طفل ويراقب حركاتهم وسكناتهم ويدونها يوميا وفي بعض الاحايين كان يتتبع حركات الطفل الواحد ساعة ساعة
ثالثاً - مشاهدة أطفال بين سن الواحدة والسادسة في ملاجئ اليتام .

رابعاً - مشاهدة مثل منازل هؤلاء في الطبقتين المتوسطة والعالية والغرض من التجارب في الأسبوع الأول لولادة الطفل مراقبة كيفية نمو حواسه ، وكيف يستطيع بعد ذلك أن يأتي حركات الجسم المعروفة. وكثيراً ما كان يدرس في معمله صغار القردة مع بنى الانسان . والظاهر ان مراقبة النوعين دلته على ان صغار القردة يستطيعون اتيان الحركات التي يأتيها صغار بنى الانسان. فضلاً عن تفوقها عليهم في حركات أخرى كثيرة والدكتور وطسن واتباعه يعتقدون أن الطفل يولد كامل العدة ، أى أن سنه لا تساعد على نمو قوات أخرى تظهر فيه فيما بعد . فالطفل مثلاً في نظره لا يخاف شيئاً وهو حديث الولادة - اللهم ألا أمرين ، وهما الاصوات المرتفعة أو المزعجة ، وعدم الاستناد الى شىء (أى خوف السقوط) - انما الخوف ينشأ من الاحتكاك بوسط يعلمه الخوف . وهذا المذهب يخالف مبدأ الوراثة لأنه يعتقد في تأثير البيئة في الفرد ولا يعلق أهمية لتأثير الوراثة

ويقول الاستاذ أن الطفل لا يخاف شيئاً الا اذا رافق هذا الشىء صوت مزعج أو ما يدل على تركه غير مستند لشيء مما يؤدى الى سقوطه وقد استخدم للقيام بهذه التجربة أرنباً في معمله ، فجعل الارنب يقترب من كل طفل تقريباً ، ولم يبد واحد منهم خوفاً . ولكن حينما اقترب اقتراب الارنب بقرع قطعه من الحديد بمطرقه خاف الطفل وانزعج وظل الطفل (وجميع الاطفال الذين كان لهم نصيب في التجربة) منذ ذلك الحين يخاف الارنب كما رآه ، ولوحظ أن النتيجة واحدة عند

بعض الاطفال حتى ولو غاب الارنب عنهم سنة كاملة وظهر بعد ذلك
وهنا أخذ الاستاذ يبحث في كيفية ازالة الخوف من الاطفال نتيجة
سوء التربية والبيئة . فحاول طرقا عديدة ولم يفلح حتى توصلت لمساعدته
الدكتورة ماري كوثر جونز من جامعة كولومبيا التي وجدت أن الطفل
ينسى خوفه من الارنب اذا وضع على مسافة بعيدة منه في عين الوقت
الذى يتناول فيه (الطفل) طعامه . وبعد ذلك يقرب منه تدريجاً الى أن
يأخذ في مداعبته

ومؤلف الاستاذ يضرب على نغمة التفكير والتروى في تربية
الاطفال ، واستخدام الحنو الطبيعى في حدوده وعدم المبالغة فيه .
والكتاب مفعم بالنصائح الصحية والتعاليم الخاصة بالتناسل ، خصوصاً
تحت موضوع « العناية ليلا تها را » وموضوع « ماذا أقول لولدى ؟ »
ويرمي الاستاذ الى جعل الطفل بعيداً عن البيئة التى تؤثر عليه
تأثيراً سيئاً ، والوسط العائلى الذى قد يرمي به الى التهلكة — ولعل
الانجليز ، حسب مبدئه ، حكماء في الاهتمام بارسال أولادهم الى المدارس
الداخلية حسنة السمعة .

« ومما يدل على أهمية الموضوع ، ظهور كتاب آخر حديث في عالم
المطبوعات ، مؤلفته سيدة عالمة من علماء النفس تدعى بلانش وايل
واسم مؤلفها

“The Behaviour of Young Children of the Same Family”

« مطبعة جامعة هارفرد »

تقول السيدة في مؤلفها أنه لا توجد بيئة واحدة للطفل ، بل بيئات متعددة ، بعدد أعضاء الأسرة الواحدة والأصحاب والجيران . وفضلا عن أن كل طفل يختلف عن الآخر في تركيبه الطبيعي ، فإن معاملته من والديه تختلف باختلاف حالة الوالدين المالية ، وسنهما ، ورغبتهما في الاطفال أو عدم الرغبة وتحسين طرق التربية بالمذاكرة أو الاختبار الخ . وقد قامت السيدة مع مساعدتها بأبحاث كثيرة ومشاهدات عملية فنية شبيهة بتجارب الدكتور وطسن ، ولكنها كانت تبذل معظم أوقاتها في مشاهدة الاطفال والعلماء والفتيات الذين يسلكون مسلكا معيبا ودلت نتيجة أبحاثها الطويلة بعد تتبع سيرة عدد كبير من هؤلاء « مع زملائها » الماضية والمستقبلية ، على أن هؤلاء المساكين « عدا ١٣ في المائة منهم » لا عيب في أبدانهم أو عقولهم ، إنما العيب كله في والديهم وبيئاتهم وقد شاهدت أيضا أن ترتيب الاطفال في ولادتهم يؤثر في تربيتهم فالولد الاول يصادف والدين غريين قليلي الاختبار ، يتعلمان تربية الاطفال بواسطة بطريق التجربة والخطأ ويكثران من مداعبته وتدليله أما الولد الثاني فيكون أقل عناية من والديه . والولد الاصغر يتوقف حظه على عوامل عائلية كثيرة ، وقد تكون في الغالب الصالحة . ومن هذه العوامل مثلا تحسين حالة الوالدين المالية وزيادة اختبارهم

القلق التعليمي

كان القرن التاسع عشر مسرحاً للقلق الصناعي وما تبعه من الثورة الاقتصادية والنضال بين العمل ورأس المال. ومنذ وضعت الحرب العظمى أوزارها تشبعت الآراء بمبدأ تقرير المصير الذي نادى به الرئيس ولسون فنشأ عن ذلك القلق السياسي، ونزوع الأمم المحتلة الى الاستقلال والحكم الذاتي. وفي خلال القرن العشرين، خصوصاً بعد الحرب العالمية، تغيرت افكار المجتمع الانساني في كثير من الآراء الاجتماعية والنظم الحاضرة فيما يختص بالمرأة، والزواج والطلاق، والفضيلة والدين، والقضاء والسجون ومعاملة المجرمون، والاطفال والحيوانات، والحقوق والواجبات، ما إلى ذلك من المسائل التي نشأ عنها ظهور عبارة التقلل الاجتماعي التي نراها في كثير من الكتب والصحف والمنحلات. ولم يقف هذا القلق العالمي عند حد الاقتصاد والسياسة والاجتماع، بل انشب اظفاره في التربية، فثارت آراء المفكرين والعلماء ورجال التعليم ضد نظم التربية الحاضرة. وقد بدأت هذه الحركة ضعيفة منذ أقل من نصف قرن، ولكنها أخذت تنمو شيئاً فشيئاً بعد نهاية الحرب العظمى حتى بلغت أشدها في خلال السنوات القليلة الفائتة الى يومنا هذا. يذكر القراء مظاهر هذا التقلل في المقالات العديدة التي نشرت

عن التعليم ، في اليابان والصين وجزائر الفلبين ، وفي روسيا وتركيا ،
والنمسا والمانيا وفرنسا و إنجلترا وأمريكا ، وأخيرا الشكوى العامة التي رن
صددها في القطر المصري من قاصيه ودانيه ، ، فوق صفحات الجرائد
والمجلات ، من طلبة وآبائهم ، ومعلمين ونظار مدارس أميرية وأهلية ،
مما حدا بوزارة المعارف الى تشكيل لجان فنية لدرس الحالة في التعليمين
الابتدائي والثانوى - هذا عدا تغير المناهج في عهد على ماهر باشا في
وزارته الاولى ، والاقتراحات العديدة التي وضعت توصلا الى تعديل
هذه المناهج الاخيرة .

وعلى الرغم مما هو معروف عن إنجلترا وفرنسا انها شديدا التمسك
بأساليبهما التعليمية ومناهجهما الجامدة ، فانك لا تكاد تقرأ عددا من
ملحق التيمس الخاص بالتربية ، إلا وتجد فيه مقالات متطرفة « راديكالية »
نقدا للمناهج ، وتقدير الدرجات ، والامتحانات العامة ، وجهل المعلمين
لنفسية المتعلمين ، واهمال طرق التعليم الحديثة ، والتعلق بأهداب المواد
الدراسية التي اتضح عدم نفعها للطلبة في الحياة العملية ، وعدم التمشي مع
العصر الحاضر . وقد ظهرت أخيرا مجلة حديثة للتعليم في إنجلترا تدعى
« العصر الحديث » ومحررة هذه المجلة السيدة بياترك انسر التي كانت رئيسة
مؤتمر التعليم الذي عقد في دانيمركه في العام الماضي

وصحف فرنسا ومجلاتها لا تقل تطرفا عن صحف إنجلترا في نقد التعليم وان يكن من التكرار الممل أن ننشر واحدا في المائة مما يكتب عن التربية في ذينك البلدين العظمين ، خصوصا وقد كتبنا في فرص مختلفة الشيء الكثير . الا انه يجمل بي ان انتقل فقرة اطلعت عليها أخيرا في إحدى جرائد باريس ، وهي بإيجاز : -

« تتخذ الآن أشد التدابير الناجعة ، لوضع حد للاستظهار ، والمبالغة في تحصيل المعارف المجردة ، والحقائق الجافة ، في المدارس الثانوية على الاخص . وقد بدأت حملة عنيفة ضد التعليم في هذه البلاد (فرنسا) منذ زمن فاهتم وزير المعارف اهتماما يليق بهذه المسألة الخطيرة ، وعين لجنة للفحص عن الحالة من جميع وجوهها ، وتقديم تقرير عنها . وبين أعضاء هذه اللجنة ، وزير سابق ، وعضو في مجلس الشيوخ ، وطائفة من كبار رجال التعليم . وقد تم وضع هذا التقرير . وأهم المقترحات التي جاءت به انقاص عدد الحصص الدراسية وتعديل المناهج تعديلا يناسب العصر الحاضر » ويقول واضعو التقرير بهذه المناسبة ، انه في حين ان عدد ساعات العمل في المصانع والمحال التجارية والصناعية وغيرها من المصالح ، آخذة في النقصان المستمر منذ سنوات عدة مضت ، فان ساعات العمل في المدارس الثانوية ، باقية على ما كانت عليه منذ القدم وعلاوة على هذا فان الاستظهار والحفظ وحشو الادمغة ، في زيادة مستمرة بين الطلبة ، خصوصا قبيل الامتحانات النهائية ، في حين ان مستوى التعليم قد انحط انحطاطا ظاهرا »

وقد قال أخيرا احد الخبراء لفن التربية أن شبان اليوم من الطلبة
سريعو الفهم ، ولا يصبرون على التكرار ، ولا يحتملون السفسطة ، وذو
الرماد في العيون والتفاخر والتباهي ، وهم لا يحتاجون الى طرق التعليم
العتيقة ، ولا يستفيدون من اساليب التربية البالية ، ويستخفون بمواد
الدراسة التي لا ارتباط لها بالعصر الذي فيه يعيشون ، والاعمال التي
بها يقومون في مستقبل حياتهم . واذا كانت هذه حالة المتعلمين من
بنين وبنات ، أفلا يجدر بنا ان نعدل من مناهجنا ، ونبتكر طرقا في
التعليم جديدة ، ونظما مدرسية حديثة ؟

تقول السيدة بئنام وهي من أشد المشتغلين بالتربية غير ، وأعلام
كعبا ، ما يأتي . -

« ان معظم طرق التعليم الحاضرة قد ابتكرت قبل المخترعات الحديثة
من سيارة ، وتليفون ، وتلغراف ، ولاسلكي ، وصور متحركة (صامتة
وناطقه) وطائرة ، و « رئيس جمهورية » فهل اساليب التربية اليوم ،
تتمشى مع هذه المخترعات ؟ ان ابداع كتاب في الجغرافيا ، وأتم مؤلف
في علم تقويم البلدان ، خريطة متقنة ، لطريق من طرق السيارات في
جزء من المعمورة ، او شطر من مملكة ، وأفضل طريقة لدرسها
وتدريسها ، استعمالها استعمالا عمليا . تستطيع ان تعلم طلبتك من الدروس
التاريخية بواسطة الصور المتحركة في عشرين دقيقة ، اضعاف
ما تستطيع ان تعلمهم في سنتين ، بواسطة كتب مدرسية ، تقيض

بالسنوات والتواريخ الجافة . اننى شخصيا قد نسيت كل ما تلقينته فى المدرسة . وما علة ذلك الا ان تلك الدروس كانت بعيدة عن الحياة ، التى نزلت فى ميدانها بعد مغادرتى المدرسة »

ومن اسباب الثوران، ضد أساليب التربية الحاضرة ، ما بلغته المرأة فى اوربا وأمريكا ، وما تبع ذلك من اهتمامها بأمر اطفالها فى مسائل التعليم ، اهتماما بهم فى مسائل الصحة والمأكل والمشرب والملبس . فالام فى القرن العشرين من الطبقات الراقية والمتوسطة ، تشتري فى مجلات التعليم التى تكتب لغير المعامين ، كمجلة « الاطفال » « التربية الناهضة » وتقرأ بلهف واهتمام كل ما ينشر فى المجلات الادبية ، وما يرد فى الصحف السيارة نقدا للمدارس ، وشرحا للطرق الحديثة ، التى تقدم الطفل وتهذبه ، وتشتري الكتب والمؤلفات الحديثة التى تكتب لغير المعامين (أى غير الفنية) وتشتري فى اندية وجمعيات المعامين والوالدين التى اشرنا اليها قبل الآن ، وتزور المعاهد التى يتلقى فيها العلم اولادها . وبالاختصار قد أصبحت الام (والاب ايضا) شريكه المعلم : وليس من يكره ان يهتم الوالدون بصالح بنيتهم وبناتهم ، ويشاركون المربين فى انهاء المدارس والاخذ بنواصرها

ولا اظن القارئ ينكر ان الآباء فى مصر (ولا اقول الامهات للاسف) أخذوا يشاركون رجال التعليم فى سرد عيوب التعليم فى مدارسنا . ولهم بعض الفضل على كل حال ، فى المناداة بالاصلاح ، بعد الاطلاع على ما ينشر فى الصحف والمجلات من المقالات والملاحظات .

ولم يقف اهتمام الوالدين في أمريكا وأوربا عند حد النقد، وطلب
الاصلاح، بل تجاوز ذلك الى انشاء مدارس خاصة على تفقّهم، وتشجيعها
على اساس النظم التي يظنونها ملائمة لاولادهم، واولاد أصدقائهم
وجيرانهم والمعجبين بأرائهم، مع الاستعانة بالفنيين من رجال التعليم.
وقد بلغت الاموال الخاصة التي انفقها مثل هؤلاء الافراد والجماعات،
مبالغ لا يصدقها العقل. وقد انتشر هذا النوع من المدارس الى درجة
عظيمة، حتى ان رئيسا لجامعة شهيرة، صرح منذ بضع سنوات ان لا
يبعد ان تكون هذه المدارس في مقدمة معاهد التعليم الراقية في المستقبل
في أوربا وأمريكا

* * *

وربما كان من اشهر الاستاذة الذين عملوا على انهاض هذا النوع من
المدارس الحديثة، فرنسيس باركر وجون ديوى اللذان اعجبا بروسو،
وبستالوزي، وفروبل، ونسجا على منوالهم، مع احداث بعض
التغييرات في خطتهم التعليمية بما يلائم العصر الحديث. وكتاب ديوى
« المدرسة والاجتماع » الذي وضع سنة ١٨٩٤، ومؤلفه الاخر « الطفل
والمنهاج » سنة ١٩٠٢، كانا النبراسين اللذين استضاء بهما اصحاب
المدارس الحديثة، والذين انتشر نورهما في جميع انحاء العالم المتمدين
ولابأس هنا من اثبات المحور الذي دار عليه هذان المؤلفان في هذه
العبارة الوجيزة : —

الطفل هو البداية والوسط والنهاية ، ونموه وتقدمه الضالة المنشودة والمثل الأعلى . وهو وحدة المقياس (الذى به تقاس نظم التعليم) :
وجميع مواد الدراسة خاضعة لنموه : وماهى الا وسائل وأدوات توضع لخدمته حاجات الطفل التى تؤدى الى تقدمه وارتقائه . وليس غرض المدارس مجرد المعلومات والمعارف ، بل تكوين الشخصية . ان واجبنا ان نبدأ بالطفل ، وننتهى به . فهو وحده الذى لاجله ترسم الخطط المدرسية ، لالاجل مواد الدراسة . ان طريقه التعليم المثلث الوحيدة ، هي طريقه العقل التى بها يلتبس الاشياء ويتفهمها وما مواد الدراسة الا طعام روحي ، ومواد مغذية فى حيز امكان الطفل . ان مصدر كل عمل مائت وميكانيكى وجامد فى معاهد التعليم ، هو جعل حياة الطفل واختاراته خاضعة للمناهج . ولهذا السبب اصبحت عبارة « المذاكرة » مرادفه لكل ما هو مرهق ، وكلمة « الدرس » صورة اخرى لواجب ثقيل شاق .

ومن أصعب المسائل التى يواجهها المعلمون الان ، مقدار ما يفرض على الطالب استيعابه وتعليقه فى ذهنه من الحقائق والمعلومات . وفى التاريخ مثلا ، هل يعد الطالب مقصرا اذا لم يذكر السنوات التى سقطت فيها القسطنطينية ، واكتشفت امريكا ، وتولى لويس الرابع عشر الحكم وخذل نابليون فى معركة واترلو الخ ؟ وماهى الحوادث التى تعد ذات

أهمية وينبغي على الطالب عدم نسيانها ؟ وماهى الوقائع التاريخية التى لا
يطلب التلاميذ بها اذا فرض أن الذاكرة خانتهم فيها ؟ وهذه الاسئلة
عينها يمكن توجيهها فيما يتعلق بالجغرافيا والكيمياء والطبيعيات وسائر المواد
الدراسية تقريبا. ان الحد الفاصل بين الاساسى والمهم ، وغير الاساسى
وعديم الاهمية ، غير واضح تماما .

لا يبد أن ثمة مبدأ عاما قد وضعه علماء التربية الحديثة ، ويجدر
بواضعى المناهج ونظار المدارس والمعالمين ، أن يضعوه نصب أعينهم .
ونثبته هنا بحروف واضحة لاهميته : —

لا يفترض ان يكون الطالب دائرة معارف متحركة ، حتى يطلب منه
استيعاب حقائق معلومة ووحدات من المعارف والمعلومات . حسب
المتعلم ان يتعود الاخذ بناصية الوسائل والادوات والمصادر التى يتمكن
بها من البحث عن المعلومات التى يريد ، وايجاد الحقائق التى يرغب فيها
عند الحاجة اليها

وجهل المعلمين بهذا المبدأ ، حتى فى المدارس العالية والسكرليات ،
يجعلهم لا يفرقون بين العام والخاص ، والاولى والثانوي ، فيطالبون الطالب
بمعرفة تامه المسائل ، وكأنهم لا يعلمون أن الطبيب لا يتقن معرفة الداء
بدرسه ، بل بممارسته عمليا ، والمحامى لا يأخذ بناصية القانون باستظهار
مواده ، بل بتطبيقه فى القضايا التى تعترضه فى مهنة المحاماة . ولجهل

هذا المبدأ ، يعاب المعلم أحيانا اذا رجع الى مذكراته . أو القاموس أو الموسوعة في الحصة ، ويعاب الطبيب اذا رجع الى مؤلفات الاختصاصيين أمام الرياسة . ولجل هذا المبدأ ، لا يستطيع حامل البكالوريا في بلادنا ، اذا لم أقل حامل الشهادات العليا ، أن يبحث عن موضوع ويلم بجميع اطرافه اذا وضعته في مكتبة جامعة ، حافلة بالمؤلفات وفهارسها ، والموسوعات والمجلات ومجلداتها .

ومن الغريب أن يلعب غير المشتغلين بالتعليم في أوروبا وأمريكا دورا هاما في هذا التقلقل أو « الثورة » ضد وسائل التربية الحاضرة كما أشرنا وأغرب من هذا أن تكون الحال كذلك في مصر ، وهي حديثة في نهضتها صبية في معهد حضارتها . وما ينبغي أن يحمر له رجال التعليم خجلا ، أن ينبههم الى خلاهم غير المعامين ، وأن يرفع صوته عالياً من هو خارج عن دائرة المدارس . وهذه الصحف أمامنا ملأى بالمقالات والشكاوى ممن لا يزاولون مهنة التعليم ، وممن لا يضعون المناهج ، ويرسمون الخطط ولا نستطيع أن نحصر أسماء أو توقيعات هؤلاء في خلال السنوات القليلة الماضية ، وحسبنا أن نذكر حضرات رؤساء التحرير في الصحف والمجلات ، والاستاذ عزيز بك خانكي المحامي ، والاستاذ لطفي بك جمعه المحامي ، والانسة مي والتائب الاستاذ محمد بك نصار « وآباء التلاميذ » . ولا ينكر المطلع على الاحوال أن يقظة وزارة المعارف العمومية لمعالجة المسائل ودرسها ، ومحاولة اصلاحها ، منشؤها تلك الاصوات الصادرة من خارج دوائر التعليم ، اكثر منها داخل هذه الدوائر

ولكن ماذا تتطلب هذه الثورة بالضبط ؟
أن الاجابة عن هذا السؤال تحتاج الى جميع المقالات التي
نشرناها مضافا اليها أضعافها . غير أنه لاجناح من وضع ما يخص للمبادئ
العامية التي تسير عليها مدارس النهضة الحديثة وهي المبادئ التي يتطلبها
القائمون « بالثورة » : —

- (١) الصحة (٢) التعلم بواسطة العمل واستعمال اليد اعانة «للرأس»
 - (٣) تجنب تقييد الحرية ومنع الضغط الخارجى (٤) مراعاة الفروق الفردية
 - بين التلاميذ سواء أكانت بدنية أم عقلية ، وسواء أكانت خاصة بالذكاء
 - أم الطبع أم الكفاية الخ (٥) تعاون الطلبة تعاوناً اجتماعياً حتى تنمو
 - جميع الصفات الخلقية (٦) أن تكون المدرسة ميداناً يظهر فيه المتعلمون
 - مواهبتهم وكفاياتهم (٧) ان تعين معاهد العلم الطالب على الاخذ بناصية
 - وسائل العلم وأدواته ، لا على خزن طائفة من المعلومات ، وإبرازها كلها
 - طلب منه ذلك ، وبذلك يصبح مجرد موسوعة متحركة (٨) أن تكون
 - طرق التعليم واسطة لتفكير التلميذ (٩) إلغاء اليد الحديدية المستبدة التي
 - ترهق التلميذ بنظم الامتحانات ، وطرق تقدير الدرجات التي لا تتفق مع
 - مبادئ سيكلوجيا التعليم (١٠) أن يكون المعلم مرشداً ودليلاً ، لا
- « رئيس فعله »

يقول جون ديوى تعزيزاً للنقطة الاولى ، اننا اذا كنا نحترم
الطفولة ، فاول قانون ينبغى اتباعه ، تنمية الجسم تنمية صحية ، والمدارس

الناهضة تضع الصحة في المقدمة . ومعنى هذا لا تقف جهودها عند حد
الفحص الطبي ، ووصف الدواء . لشفاء العلل ، والتمرينات البدنية والالعب
الرياضية المختلفة .

بل المعنى ان تكون الحياة المدرسية ، من أولها الى آخرها ، ملائمة
لنمو الجهاز العصبي عند الطفل ، فالمقاعد يلزم أن تكون متحركة ، حتى
تتوافر الحرية المطلقة للتلاميذ في غرفة الدراسة والمعنى أيضا ان نتجنب
أجهد التلاميذ وارهاقهم بالاعمال والواجبات فوق طاقتهم . هذا ويجب
الاكثر من أعمال اليد والحركة حتى يتوافر التوازن بين النشاط العقلي
والنشاط البدني

ومما يعزز نظرية التعلم بواسطة العمل وأهمية الاعمال اليدوية وجعلها
من وسائل التربية الناجعة ، ان أقرب الحيوانات إلينا « القردة » هي
الوحيدة بين سائر الحيوانات التي تعمل بأيديها ، وتستخدمها في تمييز
الاشياء بعضها من بعض وتقمها إياها

ويلزم فوق ذلك وضع عدد قليل من الاطفال في السنوات الاولى
في حجرة واحدة ، والاكثر من فترات الراحة ، والدرس والعمل
خارج المدرسة ، والتعاون بين المدرسة والمنزل ، حتى يقف الوالدون
والمعلمون ، على السواء ، على حالة الطفل البدنية والعقلية ... واذا لزم
الامر ، ينبغي التوضيح بالاعمال المدرسية في سبيل الصحة ، ولا عكس
مع تعديل طرق وضع الدرجات العقيمة ، ونظم الامتحانات المرهقة ،
اذا لم يمكن الغاؤها بالمرّة

ومن التشبيهات الغريبة التي عثرت عليها في مقال لمؤلف حديث
ينحى باللائمة على مدارس أوروبا المتأخرة ، هذه العبارة التي لا بد أن
يلد للقراء الاطلاع عليها وهي : - « أن جعل الاعمال المدرسية مقصورة
على الكتب ، وارهاق أرواح الطلبة في بعض مدارس أوروبا المتأخرة
بالمطالعة والدرس والاستظهار ، وارهاقهم بالمؤلفات والمجلدات الضخمة
هي آفة الغربيين ، كما أن الحشيش آفة الشرقيين » ومما يدعو الى
الاستغراب في هذا التشبيه السخيف أن الكتب كان أستاذاً في جامعة
شرقية ، وأن طلبته الذين عاش بينهم عدة سنوات كانوا شرقيين ، ولا
أظن أن مقدار الحشيش الذي استهلكه هؤلاء في خلال المدة التي
مكثها معهم ، كانت كافية لتبرير هذا التشبيه . وكان تشبيهه يكون
أقرب الى الحقيقة لو قال ان ولع المدارس الاوربية المنحطة بالكتب
كولع المدارس الشرقية بها

ولا ندعى أن نهضة التعليم الحديثة بلغت حد الكمال انما هي كسائر
النهضات الاخرى الاقتصادية والسياسية والزراعية والعلمية ، نزوع
الى الاصلاح وما هذا التقلقل في عالم التربية سوى محاولات متفرقة
متعددة طلبا للاصلاح . ومهما قيل في هذا التقلقل ، فان المبدأ العام
المنفق عليه أن السكون موت والحركة حياة والوقوف تقهقر والسير

تقدم

أهم مبادئ التربية

من العيب أن نلج باب البحث في موضوع عام كهذا بغير أن نحصر كلامنا في جهات محدودة منه ، وأن تقتصر على الجهات التي أعتقد أننا أحوج إليها أكثر من سواها . وليست هذه المبادئ التي سأدلى بها مبتكرة من عندي ، ولست أظن أنكم ترحبون بها ، فيما إذا كنت قديراً على ابتكارها . ولكنها قواعد أساسية اتفق عليها معظم علماء التربية — ولا أقول كلهم — سأنقلها إليكم بكل ما أوتيت من أمانة في النقل . لعلمكم تجدون فيها ما يفيد : —

١ — فلسفة التربية : الفلسفة في الأصل نظريات ومبادئ . وقد كانت إلى عهد قريب — في ميدان التربية على الأخص — عديمة الأهمية لأسباب عدة . أهمها أنها كانت لا تفرق بين التعليم وما وراء المادة وثانياً أنها كانت مجرد آراء جدلية ، ونظريات لا تستند إلى حقائق علمية ، أو تجارب عملية أو أرقام إحصائية . أما اليوم فقد أصبح قوام الفلسفة في التربية التجارب الواسعة النطاق ، التي قام بها علماء النبات والحيوان والفسولوجيا والنفس ، وأحدث الآراء التي أجمع عليها علماء الاقتصاد والاجتماع وغيرهم

وبمعنى آخر أن الفلسفة المشرفة العام على العلوم الحديثة ، تضم

العناصر التي استخرجها العلم من شتى النواحي ، وتقدمها للتربية في شكل نظرية ، فبدأ فقاعدة ، تسير عليها الموكل اليهم أمر التعليم الي أن يتضح بطلانها

واذا قلنا أن الفلسفة نظريات ، فلا بد لنا أن نذكر أن العالم في تطوره يسير من الطور العملي الى الطور النظري ، ثم ينتقل من النظري الى العملي وهكذا كالفرخة تلد بيضة والبيضة فرخة الى ما لا نهاية له .
ويزعم غير العارفين ، أن النظريات أو الفلسفة ، لا نفع لها في التربية أو في أى شيء آخر ، لأنها مجرد أحاديث جدلية ، ويكفى أن اسمها « نظريات » . ولعلمهم يخلطون بين الفلسفة والسفسطة : غير أنه من المشاهد أن النظريات ما هي الا ثورة فكرية على حياتنا العملية . فقد كان الناس في كل العصور زراعاً قبل أن يدونوا نظرياتهم وآراءهم في الزراعة ، وكانوا مشغولين بالعلاج والتطبيب قبل أن يكونوا فلاسفة في الطب ، وكانوا منجمين وفلكيين ، قبل أن يكتبوا نظرياتهم في التنجيم والفلك . وكانوا كلما أنسوا في أعمالهم عيباً أو ضعفاً أو تقصيراً ، شكوا وتذمروا ، وتفلسفوا ، لعلمهم ينتقلون من فلسفتهم الى حالة عملية أرقى وأوفى بالغرض المقصود

والفرق بين الفلسفة الحديثة والقديمة — كما أسلفنا — هو أن الثانية كلامية ، والأولى نتيجة العلم والتجارب العلمية . والفلسفة الحديثة يرجع الى مبتدعها الفيلسوف الانكليزي فرنسيس بيكون ولو أنها لم تتقدم إلا بعده بزمان طويل .

أما فيما يختص بفلسفة التربية فقد وضع لنا جها بدتها من روسو وبستالوزي وهربارت الى هربرت سبنسر ووليم جيمس وجون ديوى فلسفات عدة على أساسها شيدت مدارس منتيسورى فى ايطاليا ، وجان جاك روسو فى سويسرا ، وأوفيد دكرولى فى بلجيكا ، واكول دي روش فى فرنسا ، ومدارس المشروع ووينتكا فى أميركا ، ومدارس نظام دالتون فى أميركا وانجلترا واليابان وغيرها

ونحن فى مصر قد وضعنا نظام التعليم العام منذ سنة ١٨٣٦ ولم نوفق الى اليوم الى فلسفة معينة ولا عجب اذا سارت سفينتنا بغير دليل .

٢ — غاية التربية : هذا موضوع اطلنا البحث فيه فى الاجتماع السالف وليس هناك ما يدعو للعودة اليه . غير اننى أريد أن الفتكم الى أمرين هامين فيه وهما :

اولا — أن الغاية كالتقانون تنمو نمواً ، وتتكون تكويناً تبعاً للأحوال ، ولا توضع . وكما أن الانسان اقتبس فكرة عجالات العربية من الأحجار المتدحرجة ، وفكرة البلونات من الأوراق الذابلة تعلق فى طبقات الجو ، وفكرة القوس والنشاب والموسيقى الوترية من الجبال المشدودة ، فكذلك الغايات تقتبس من الظروف والحاجات البشرية ووظيفة التربية العمل على تحقيقها .

ثانياً — أن الغاية تتغير بمضى الزمن ، وتقلب الأحوال . ومدنية القرن العشرين سريعة التغير ، سريعة العدو ، فلا مندوحة إذاً من أن

تتغير غاية التربية بهذه السرعة . ولا غرابة اذا رأينا كتب التربية تدون
غايات أمس ، وتستبدلها بأخرى اليوم وتشير الى غايات اليوم لتحل مكانها
سواها غداً

٣ — وظيفة المدرسة : أولاً — يعترض بعض علماء التربية على
القول ، أن وظيفة المدرسة اعداد النشء للحياة ، لأن المدرسة هي شطر
منها ، ولكن اذا تساهلنا في التعبير باعتبار المقصود من الحياة هنا ،
حياة البالغين القادرين على كسب قوتهم ، فيجب أن نقول أن وظيفة
المدرسة اعداد النشء الى المثل الأعلى في الحياة أو الى الحياة المهذبة المصقولة
ثانياً — وظيفة المدرسة التقرب للعالم ، والتغلغل في الحياة . كانت
المدرسة في القرون الوسطى تعيش في عزلة عن العالم الخارجي ، فتلجأ
الى المعابد والمساجد والاديرة تارة ، والى دور الملوك والاشراف أخرى ،
ولا يزال الكثير منها اليوم في منعزل عن البيئة ، قليل الاتصال بالحياة ،
في مناهجه ونظمه وطرق التعليم فيه

أن التربية مسألة اجتماعية ، بمعنى أن وظيفتها اكتشاف معاني الاشياء
من حيث علاقاتها بالغير . فالفأس ، والمحراث ، وسكينة الجراح ، وريشة
الفنان ، وأزميل المثل ، كلها عند الطفل جوفاء المعاني ، ما لم يدرك
وظائفها ومغازيها في الحياة . والرقص ضرب من الخبل ، ما لم يتصل بمعاني
التوقيع ، والموسيقى .

ثالثاً — والتربية كالصدقة أو الاحسان ، ينبغي أن تبدأ بالمنزل أو
الأسرة . ثم تتسع بالتدرج الى الخارج وبعبارة أخرى أنه ينبغي لنا أن

عمد الطريق للطفل حتى يبدأ بأدراك البيئة الصغيرة التي يعيش فيها. وفهم المنزل والأسرة ثم القرية أو المدينة ومن هنا تتسع أمامه الأفق حتى تمتد الى المجتمع بأسره

ومدارس القرون الوسطى ، ومدارس اليوم الشبيهة بها . تعيش في المجتمع . ولكنها ليست منه . وطلابها في المجتمع ، ولكنهم في عزلة منه . ومثل هؤلاء — من هذه الناحية — مثل المجرم ، دائرة افق ضيقة . ومبادئه معدودة على الأصابع وهي الولاء ، والشجاعة والكرم والصبر على المكاره . وحب التضحية . ولكن مجموع هذه المبادئ في صالح الدائرة الاجرامية التي ينتسب اليها . وضد المجتمع الانساني .

٤ — مناهج الدراسة : أولا تكون مناهج الدراسة ضيقة ، جامدة مقيدة ، اذا ماساعدت النشء على النمو في ناحية على حساب ناحية أخرى فمادة الحساب تكون ضيقة جداً ، اذا اقتصر نفعها على مجرد تصنيف الأرقام ، وفهم العمليات الحسابية . والرياضي الذي لا يتعدى فهمه حدود الأرقام ، والعمليات الحسابية مثال يحتذى به في ضيق العقل . ومناهج الحساب الحديثة الراقية ، التي تزيج الستار عن غوامض الطبيعة ، وتفتح للطالب مجال التفكير في سر الكون فسيحاً

ومادة الفسيولوجيا مثلاً مفيدة للصحة ، ولكن الأهم من هذا أن ترسم أمامنا بصورة ناطقة جليلة ، الطريقة العلمية التي نقضى بها على الأباطيل والخرافا ، ونقطع بها دابر الدجالين والعرافين والعرفات يزعم البعض أن مواد الدراسة الادبية تغذى النفس أو الروح ،

وأن مواد الدراسة العلمية تغذي العقل فقط . وهذا بهتان
وكذب لان الفاصل بين الادب والعلم ليس واضحا بهذا المقدار . وأهم
من ذلك أن علم النفس الحديث ينكر وجود الروح والعقل . أو كما قال
أحدهم انه فقد روحه منذ عشرين عاماً ، وعقله منذ خمسة أعوام .

وقد أسرف الذين يفرقون بين العلم والادب في القول ، فادعوا أن
قلب رجل العلم في عقله ، وعقل رجل الادب والفن في قلبه ، أي أن
رجال العلم لا قلوب لهم ، وأن رجال الادب لا عقول لهم

ثانياً — أننا لا نستطيع أن نتنبأ مقدما عن أية المواد تنفع طفلا
معلوما وأيها لا تنفعه . وينتج عن هذا أنه ينبغي أن نقدم له ما نراه
صالحا من مواد الدراسة الأساسية ، ثم نقدم له بعد ذلك عدداً كبيراً
منوعاً من المواد ونترك له الحرية في اختيار ما يلائم مواهبه ، بشرط أن
تكون هذه الحرية مقيدة بالنصح والارشاد من معلميهِ . وفي هذه
الفترة يلزم أن نزوده بالمعلومات العامة الصحية . والاقتصادية والاجتماعية
مصحوبة بعد قليل بالمواد التي تظهر فيها مواهبه وتنمو

ثالثاً — المناهج في عرف الطبقة الناهضة من المربين اليوم في المرتبة
الثانية من الاهمية . وان هي إلا وسيلة تنشدها معاهد التعليم توصلا
الى خلق الجو الملائم للتعلم حتى ينمو ويحيا حياة ملؤها الشبع والامتلاء
والنشاط والعمل والتفكير . وما مواد الدراسة سوى مصنع عملي من
مصانع الحياة . يجد الطفل فيه مشكلاً حقيقياً من مشا كل العالم . فيعمل
الفكرة ويبذل الجهد في حله والخروج من مأزقه ظافراً

ولا غرو اذا أصبحت المناهج غيرها بالأمس . فقد حذف منها مواد كثيرة . وأضيف غيرها مما له اتصال مباشر بالحياة كالأعمال اليدوية والتربية البدنية والدروس الاجتماعية والصحية والصناعات العامة والفنون الجميلة . ولا غرابة اذا تبدل نظام الكتب المدرسية . وتحرر الطلبة من رقها واستعبادها . فبعد أن كانوا يدرسون المادة في كتاب واحد لا يحدون عنه قيد شعره ، ويعدون كل ما يرد فيه قضية مساهمة لا مناقشة فيها ، أصبحوا يدرسون الموضوع الواحد والمسألة الواحدة في عشرات من الكتب . وأصبحت المكتبة وغرفة المطالعة أهم ماتعنى به المدرسة . ولا بدع اذا أطلقنا على المناهج اليوم اسم مناهج النشاط . وتخيرناها بشرط أن تلائم طبيعة الفرد أولا ، وحالة المجتمع ثانيا

رابعا — لقد أثرت المناهج الحديثة في مباني معاهد العلم وأثاثها فقاعة المحاضرة الكبرى التي يجتمع فيها الطلبة جميعهم يوميا لسماع محاضرة قصيرة أو قطع موسيقية أو لمشاهدة قطع تمثيلية أو صور متحركة . والملاعب بجميع أدواتها ومعداتنا . وحماماتها وبحيرات السباحة ومصانعها لتعليم النجارة والحدادة والطباعة وصناعة الجلود والخزف والزخرفة وغرف الفنون الجميلة والموسيقى والرقص وقاعات المائدة وغرف الاستراحة وحفلات السمر . والقضاء على المقاعد الثابتة واستبدالها بمقاعد متحركة توضع في أشكال موائد مستديرة . كل هذه أصبحت من مظاهر الحياة الاجتماعية داخل المدرسة

خامسا — لقد أثرت المناهج الحديثة في إدارة المدارس والاشراف عليها . فبعد أن كان النظام المدرسي يعد مثلا أعلى متى كان القابض على

زمامه يسير دفته بيد حديدية ، ويتخذ الاستبداد والقسوة والشدة مبدأ له ، ولا يشرك المعلم في هذه الادارة الا نادراً ، أصبحت الحرية والتعاون والتكاتف بين الادارة والمعلم والطالب تسود الجو المدرسى ، وبعد أن كانت المناهج تصدر من السلطات العليا أصبح للمعلم نصيب يذكر في وضعها

٥ — قيمة المواد الدراسية . أولاً — لا يكفي أن تكون للمادة الدراسية قيمة أو أهمية حتى نبرر وجودها، لأننا نستطيع أن نتلمس الفائدة في كل ما يمكن تدريسه تقريباً ، غير أن القيمة أو الفائدة ينبغي أن تكون نسبية ، أى يلزم تفضيل الأهم على المهم فاذا خيرنا مثلاً بين ادخال علم التعدين أو العزف على الربابة في جميع مدارسنا الثانوية إجبارياً لكل الطلبة ، فأنا نختار بلا شك المادة الثانية . واذا خيرنا بين اللاتينية والاغريقية أو الايطالية والالمانية فأنا حتماً تفضل إحدى المواد الثانية على الاولى . واذا خيرنا بين مادة الحساب والادب العربى فى القرن الثالث للهجرة ، فأنا بلا شك تفضل الحساب ، رغم أهمية الأدب العربى لأن الحساب يفتح للطالب عشرة أبواب فى حين أن الادب قلما يفتح باباً واحداً

واذا خيرنا بين مادة الجبر وعلم الأغذية لفضلنا الثانى
ثانياً — وقد تكون المادة الواحدة أهم لطالب منها لآخر وأفضل لمديرية أو ولاية أو طائفة أو مملكة منها لآخرى . فاللغة الاسبانية غير معروفة فى مدارسنا فى حين أنها منتشرة فى مدارس كندا وولايات أميركا المتحدة ، نظراً للعلائق التجارية بين هاتين المملكيتين وبين جمهوريات أميركا الجنوبية وغيرها من البلدان التى تنطق بالاسبانية

وعلى هذا المبدأ يكون درس البلهارسيا والانكلستوما مهماً جداً في الدلتا ومديريات الوجه القبلي الى أول حدود أسيوط ، عديم النفع تقريباً الى ما هو جنوب تلك المنطقة . وعلى هذا المبدأ يكون درس الجيوب المثمرة لكل طالب مصري ودرس الوقاية من العقارب في مدينة جرجا أهم من التاريخ والجغرافيا والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة والادب الانجليزي متجمعة . وذلك لأن حاجتنا اليها تعادل حاجة قدماء اليونان للمنطق لأنه كان يتخذ أداة للجدل والمناقشة لمنافسة الزعماء ، وتعادل حاجة الرومان الى اللاتينية لأنها كانت ساما يرتقى به الى الدراسة العالية

ثالثاً — يقول جون ديوى في هذا الصدد أن مواد الدراسة التي تكون أشد اتصالاً بالمجتمع وحاجاته ، والتي تكون اختياراتنا اكثر حاجة اليها . يلزم أن توضع في المرتبة الأولى . مثال ذلك اللغة القومية الحساب . الجغرافيا . التاريخ . علم الصحة الخ . أما المواد التي تصلح لفئة خاصة . ونحبة من أبناء الأمة . فهذه يلزم وضعها في المرتبة الثانية . مثال ذلك الكيمياء . الفلسفة . الجبر . الهندسة . الفلك الخ وبتعمير فني يلزم أن نقدر مواد الدراسة قيمة وأهمية على أساس « المقياس الاجتماعي »

رابعاً — وليست هذه الاقوال وأمثالها ببدعة جديدة في فلسفة التربية . فقد كتب هربرت سبنسر مالا يخرج عن هذا المعنى منذ أكثر من ستين عاماً مضى . يقول ذلك الفيلسوف الانجليزي . كما أن الزينة سبقت اللباس في تاريخ التمدن الانساني فكذلك في المعرفة والعلم ، يسعى الناس في طلب الزينة والتزويق . قبل السعي في طلب الفائدة ،

ومعظم ما نلقاه من العلوم في مدارسنا للزينة اكثر منه للعلم فاللاتينية واليونانية والأدب وأسماء الملوك في صحائف التاريخ وحروبهم وموتهم وزواجهم — كل ذلك ندرسه للزينة وخوف انتقاد الغير لنا

ثم انتقل سبنسر بعد ذلك الى تقسيم المواد الدراسية بترتيب أهميتها . فوضع في المرتبة الاولى منها المواد التي نحافظ بها على حياتنا تليها المواد التي تعيننا على تربية الذرية . ثم العلوم التي نحافظ على العلائق الاجتماعية والسياسية وأخيرا العلوم التي نستخدمها في أوقات الفراغ لتربية الذوق السليم وأشباع الشعور والعاطفة . وتكلم سبنسر أيضا عن الأهمية أو القيمة فقال أن بعضها حقيقي وبعضها شبيه بالحقيقي وبعضها تقليدي وأشار الى وجوب تعميم النوع الأول بين أبناء الأمة . ووجوب قصر النوع الثاني على أذكي أبناء الأمة (وهذا يطابق تقسيم ديوى تقريبا) ثم قال عن النوع الثاني أنه لولاه لكانت مدينة العالم في هذا العصر شبيهة بها في زمن الاقطاع

ثم تكلم سبنسر عن دراسة الادب والشعر فقال إن هذا قد يؤدي بصاحبه الى صحة النطق ورقة القول ورشاقة الحديث وحلو العبارة وجزالة الكلام وجمال التعبير ، غير أنه لا يمكن أن يقال انه من الاهمية ما يوازي المبادئ الاساسية والامام بعلم الصحة وتربية الذرية ، وتفهم الحياة القومية ورفع المستوي الاخلاقي والاقتصادي — وتتلخص هذه النقطة في سؤال طالما وجهه هربرت سبنسر ، وخلق بنا أن نوجهه الى رجال التعليم اليوم وهو « أية المواد الدراسية لها حق الأولوية ؟ »

٦ — المعلم : اولا — مهمة المعلم أن يوقظ في نفس التلميذ روح

البحث والرغبة وأن يعطف عليه ويشجعه ، ويفتح له ابواب المرافق البشرية بكل أنواعها ، أو كما قال بعضهم أن ينفخ روح الحياة الاجتماعية في رفات بال .

ثانياً — ويجدر بنا هنا ألا ننسى مطلقاً أن وظيفة المعلم لا تتعدى فتح الابواب لا ولوجها ، فإن الثاني يترك برمته للتلميذ . والمعلم إذا مرشد ومعين لا غير وعلمه الغزير ، واختصاصه في مادته ، وتعمقه فيها لاتجديه تقعا ، إذا لم تكن صفات العناية والعون والعطف والارشاد متوافرة فيه جد التوافر . ومعظم المرضى يستوى عندهم الطبيب الحاذق والدجال المنافق طالما كانت الممرضة شديدة العناية ، كثيرة العطف ، باشة الوجه ، خفيفة الحركة ، غزيرة المعرفة ، ومن قبيل الكماليات وسيمة الطلعة ، عذبة الصوت .

ثالثاً — مهمة المعلم ان يحول اعمال التلميذ الى غايات وأهداف وأن تكون هذه مشوقة مرغوباً فيها ، محببة اليه . منال ذلك : —

صنع صندوق من الخشب وتغطيته بالورق من الداخل والخارج ثم استخراج المبادئ الرياضية من هذه العملية ، خير من مجرد استظهار هذه المبادئ مجردة عن حالة عملية مستخرجة من حياتنا اليومية .

رابعاً — مهمة المعلم أن يترك تلميذه يلتمس الحقائق العملية حتى يعثر عليها بنفسه ولا ينبغى له أن يكون معترراً برأيه أو حاكماً مستبداً ، يملئ على الطفل مبادئه واعتقاداته ، لأن الحقائق لاتثبت في ذهن الطالب الا متى كسبها بعرق جبينه

خامساً — أن رغبة التلميذ العادي عن الدرس في سن معلومة ، دليل

عدم نضوجه في الغالب ، أو ان الدرس قدم له في حالة لا تهضمها معدته وبهذه المناسبة نقول ان التربية عملية نتوصل بها الى تعديل الطبيعة الانسانية وصقلها صقلا يناسب الحياة . ومن أهم واجبات المعلم تفهم هذه الطبيعة .

سادسا — ليس التعليم علماً وحسب ولكنه فن أيضاً . والفرق بين الاثنين أن العلم معرفة ، والفن المقدرة على تطبيق المعرفة . العلم مجرد مبادئ نظرية ، والفن قوانين عملية . العلم يقودنا للمعرفة ، والفن يدعونا للعمل . ووظيفة المعلم أن يكون فناً أكثر منه علماً .

٧ — الاخلاق : الاخلاق مجموعة عادات وتقاليد ومثل عليا اتفق عليها المجموع فأصبحت في الفرد لهما من لهما وعظما من عظمه فاذا أطرى المجموع الملائكة ، وطبل لبطلها وزمر أصبحت الملائكة في نظر الافراد حميدة واذا هجاها وأغضى عنها أصبحت رذيلة . ومن هذا ينتج أن مقياس الاخلاق تختلف باختلاف الجماعات والزمان والمكان ، ويتغير تبعاً لها . وما يجدر بنا معرفته أن المتفق عليه الآن ان درس مبادئ الاخلاق درساً قائماً بذاته لا يفيد في تكوين الاخلاق ، لانه لا يوجد في طبيعة الآراء والمبادئ التي نلقنها للتلميذ عن الأمانة والعفة والصدق والدقة والنشاط والشفقة وغيرها ما ينقلها نقلاً ميكانيكياً اتوماتيكياً الى نفس الطالب فيصبح أميناً ، عفيفاً ، صادقاً ، دقيقاً ، نشيطاً ، شفيقاً . ان الاخلاق لا ينبغي فصلها عن التعليم كما أن العلم لا يفصل عن العمل . والاخلاق لا يتعلمها الطالب في قصة قائمة بذاتها بل يتلقاها في كل عمل يأتيه ، سواء أكان ذلك في قاعة الدرس ، أم في ساحة اللعب أم في النادي أم في المكتبة

ولو اتسع المقام لقرأت لكم بعض فقرات من مؤلف ديوى «المبادئ الاخلاقية فى التربية» وحسبى ان اذ كر ان تعاليمه قد حولت أنظار الاندية المخصصة للشبان والشابات الى توفير الفرص واعداد المعدات التى بها يتعاونون ويعملون ويجتمعون بدلا من محاولة تربيتهم أخلاقيا بمجرد تلقينهم المبادئ الاخلاقية والدينية. مثال ذلك جمعيات الشبان واما كن العبادة فى اميركا

فى حجرة الدرس يتعلم الطالب فيها الغش والخيانة والكذب والجبن أو الامانة والثقة وعزة النفس والابتكار. ومن العبث اننا نستطيع أن نعلم التلاميذ هذه تعليما مباشرا. فالمعلم الجبان قد يخرج طلبة جبناء، والمعلم الذى يتطلب غير المعقول من طلبته، لا ينتظر منهم غير الخديعة والخيانة. وبعكس ذلك يغلب على طلبه المعلم سامى الاخلاق أن يكتسب منه طلبته الصراحة والعدل والثقة واحترام الغير وجودة العمل.

واذا نسينا كل مبادئ التربية يلزم ان نذكر هذا المبدأ وهو «التعلم بالعمل» ويشمل معنيين أولهما أن التعلم لا يتم فعلا الا بالقيام بعمل أو الاشتراك مع الجماعة فى تأدية نوع من أنواع النشاط، وثانيهما ان تعلم الامانة وخدمة للغير وغيرها من مبادئ الاخلاق لا تتم فعلا بمجرد الكلام عنها ولكن بمزاولتها والتعود لها، كلما جاءت مناسبة فى المدرسة وخارجها.

فى فبراير سنة ١٩٣٢ أتيح لى ان اكون عضوا فى مؤتمر اقامه

مديرو التعليم وقد حضره في مدينته واشنطون نحو عشرين ألف من
المشتغلين بالتربية ، وقد كان بين أهم جلساته جلسة خاصة بالتربية
الخلقية ، وقد اتفق رجال هذه الجلسة على أمور عدة أهمها ما يأتي : -
(١) أن أهم مبادئ الاخلاق متفق عليها وإن اختلف الناس في
تأويلها .

(٢) ليس من واجب المعلم أن يبت في مسألة أخلاقية غير متفق
عليها ، ولكن عليه اعانة الطلبة على طرحها على بساط البحث وذكر
ما لها وما عليها

(٣) ان علاقة الفرد بالمجموع الانساني من أهم المبادئ التي يلزم
الاعتراف بها في التربية الخلقية

(٤) من العبث ومن الخطأ أن نفرق بين مواد دراسية تؤدي الى
تربية خلقية ، وبين أخرى لاعلاقة لها بهذه التربية

(٥) وينتج من هذا ان كل منهاج حسن وسيلة للتربية الخلقية

(٦) وكل تربية بالمعنى الصحيح هي تربية خلقية

٨- كلمة خاصة : قد يكون بين المبادئ التي ذكرنا ما يظهر لأول
وهلة أنه غير عملي ، أو غير قابل للتصديق ، وذلك لاننا ألقنا مبادئ
خاصة ، سرنا بموجبها سنوات وأجيال . وليس من الحكمة في شيء
أن نأخذ بجميعها قضايا مسالمة ، لا تقبل النقد ولا الجدل ، كما أنه ليس
من الحكمة في شيء أن نضرب بها عرض الحائط ، بغير أن نبني حكمتنا

على أساس الدرس والبحث والتجارب . فليس رجال الغرب الذين أفنوا
أعمارهم في تكوين المدنية الغربية ، والعقلية الاوربية ، التي أخرجت
لنا أبطال الصناعة والاختراع والاكتشاف - ليس هؤلاء بالجهلاء السذج
الذين يلقون القول جزافا ، فيدونون لنا مبادئ لا وجود لها الا في
عالم الخيال

فلننهض إذاً ، ولنقلب صفحات الكتب التي جمعت حكمة الفرنسيين
والألمان والانجليز والامير كيين في عصرنا الحاضر . ولنضع مبادئهم في
بوتقة التجارب عندنا



التربية الحرة

الحرية في جميع أشكالها عبارة تستعذ بها اللسن وتطيب لها النفوس والتربية الصحيحة عنوان النبل وأول خطوة يتقدم بها المرء في طفولته نحو الأمل بسعادة المستقبل . فإذا ما تغلغلت الحرية في مبادئ التربية وفلسفتها اجتمعت لدينا منهما قوة لا تعادها في الوجود قوة

يفرق بعضهم بين التربية الاحترافية والتربية الحرة ، فيقولون أن الاولى وسيلة تؤدي الى غاية وهذه الغاية هي اشغال وظيفة أو مزاوله مهنة . والثانية غاية في ذاتها أن كما يقال عادة طلب العلم لذاته ، فالرأى في هذه الفكرة القديمة أن التربية الحرة تتنافى مع التربية الاحترافية . بيد أن التفرقة في العصر الحديث محال . لأن التربية الاحترافية قد تكون حرة . فقد ولت الايام التي كان فيها الرجل العالم يظل عاطلا والتي كانت فيها مزاوله المهنة تتنافر مع العلم والحكمة كما كان يعتقد أفلاطون

وقبل أن أدلى بآراء العلماء المتضاربة في معنى التربية الحرة أقول أن هذه الآراء جميعها تؤدي حقيقة معنى واحدا وأن تناوُلها واضعوها في صور شتى وسبكوها في قوالب لفظية عدة . ولعل الخطأ البين الذي يقع فيه الوالدون وأبناءؤهم على السواء أنهم يفكرون في العيش والملح كما نقول نحن ، أو في العيش والزبدة كما يقول الغربيون ، قبل أن يفكروا

في الرجولة وتكوينها والشخصية وتنميتها . وقد فات هؤلاء أن العيش
والملاح — أو كسب الرزق — إنما هو ثمرة هذه الشخصية ، فإذا ما القينا
بذورها على تربة خصبة أنبتت لنا كل ما نستطيع من عيش وكل
ما نستمتع من ملاح

ومعهدنا «معهد التربية» قد شيد على أساس هذا المبدأ وهو تكوين
الشخصية بواسطة التربية الحرة ، وإن اختلفت التعبيرات التي أدلى بها
في خطب السنوات السابقة الرئيس وطسن والدكتور روبرت مكلانين
والعميد رسل جوات . نبعث بأبنائنا الى المدرسة أو الكلية وأول
ما نتساءل عنه ، أي وظيفة يشغل وأي حرفة يحترف وكم من الجنيهاً
يتناول ، وهذا كله حسن . ولكن قلما نسأل أنفسنا — وماذا تكون
شخصيته ، وهل في مقدور تلك المدرسة أن تزوده بسلاح الرجولة
وتخرجه الى ميدان الحياة جندياً مستبسلاً يشق طريقه غير هيباب
ولا وجل

وما هي ثمار هذه الشخصية ؟

يجيب عن هذا السؤال ثلاثة من فحول الانجليز ، أحدهم شاعر
وثانيهم فيلسوف أو مفكر وثالثهم عالم

يقول الشاعر أن ثمار الرجل المتعلم تعليماً حراً عقلية مصقولة ، وذوق
سليم ، وصراحة وعقيدة لا تؤثر فيهما الاهواء ، ثم ايمان راسخ

يقول الفيلسوف قديكون الرجل ملماً بالتاريخ والطبيعات والكيمياء
ولكن ينقصه من التربية شيء آخر غامض تصعب تسميته قد يكون
هذا الشيء شعراً أو موسيقى أو فناً من الفنون الجميلة ، أو مركباً كيميائياً
مجهولاً يمتزج به لهماً ودمماً ونفساً ، أو شيئاً آخر لا أدركه أنا ولا يدركه
في الوجود سوى

يقول أحد علماء الانجليز ان التربية الحرة تجعل جسم صاحبها
خادماً لارادته وهي التي تسير المرء في طريق الحياة بخفة وسهولة طبق
حقائق أساسية علمية . والرجل المتعلم تعليماً حراً هو ذاك الذي لا يمكن
أن يقال عنه أنه زاهد أو ناسك أو متصوف ولكن حياته تفيض رقة
ولطفاً ونشاطاً . هو ذاك الذي يحب الجمال في الطبيعة والفن على السواء
هو ذاك الذي يحتقر الخسة ويحترم الغير كنفسه

وقد جاء في الحديث الشريف « لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم
فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل »

اذا يريد العالم أن يكون المتعلم ملتهباً غيرة ولكنه قدير في ضبط
النفس ، اختصاصياً في عمله ولكنه ولوع بالجمال في جميع أطواره ،
قاسياً ورحيماً ولكنه يحترم الغير كنفسه

واذا قارنا بين هذا التعريف وما نشاهده من ثمار التربية في كثير
من جامعات العالم رأينا بونا شاسعاً ، فكيف نجد بين جذرائها من عجرفة

وكبرياء ، وصاف وعدم اعتداد بالغير ، وأرستقراطية كاذبة تطل من
سماء قصورها الخيالية على أكواخ ديمقراطية محتقرة . كم رأينا من ثمار
تلك الجامعات من رجل يجلس الى مائدة ويولي وجهه شطر الحائط
وظهره شطر بقية البشر يطالع كتابا وهو لا يدري في الحياة غير سطور
الكتاب ، ولا يعرف شيئا عن الطبائع البشرية ، ولا يحترم غير آرائه
ولا يعيش الا لنفسه . قد يكون ذلك الرجل عالماً — بالمعنى العامي —
ولكنه ضيق العقل محدود التفكير . قد يكون اختصاصياً في عمله
ولكنه لا يفقه للجهل معنى ولا يحسب للغير حسابا . هذا الرجل لم
يترب تربية حرة ، وان يكن عالماً فتجنبوه

* * *

كان أرسطو في العالم الاغريق زعيم التربية الحرة وأول من ضرب
على أوتارها نغمات تأخذ بمجامع القلوب . كان أرسطو يقول ان كل
وطنى حر يجب أن يتربى تربية حرة ، لا كميزة للاستعلاء والزهو بل
كواجب ومسئولية وعلم يحمله خدمة للوطن . ويجب أن تشمل هذه
التربية حرية الجسم وحرية العقل وخصافته وحب الجمال واستعمال
أوقات الفراغ

وقد تغيرت وجهة النظر في التربية الحرة في القرون الوسطى فكان
يقصد بها الامام بالفنون السبعة وهى (١) النحو (٢) فقه اللغة (٣) البيان
(٤) الموسيقى (٥) الحساب (٦) الهندسة (٧) الفلك

ولعل معاهد العلم في جميع انحاء العالم متأثرة بوجهة النظر في القرون الوسطى لاننا ما زلنا نفرق بين أرسطراطية متعلمة تتقن عدة مواد دراسية ، وفوضى جاهلة ، كما كانت تفرق في القرون الوسطى بين الكتّاب والجندي وكما كان يفرق أرسطو بين الحر والعبد

وقد ظهر في القرن الخامس عشر في ايطاليا «البشريون» فنادوا بوجوب تعليم ابن الدوق جنبا الى جنب مع ابن الصعلوك ، وجاء لوثير في عصر الاصلاح فزاد هذه الوجة وضوحا

التربية الحرة تمكن صاحبها من تكييف نفسه تكييفاً يناسب مقتضيات الاحوال فاذا هبط صاحبها من سماء الجاه والثروة الى هوة الفاقة نزل الى ذلك المستوى وعاش - مع ذلك - فيه سعيدا . واذا صعد من هوة الفقر الى قمة المجد لا يغمس في مراتع القصف والذهو بل يعيش عيشة معتدلة لا ثقة بالرجلى الشريف غير المحدث

ويقول لوك : ليست مهمة التربية الحرة الوقوف على المعلومات والالمام بالمعارف ولكن اطلاق العنان للفكر والمقدرة على الحصول على ما يريد من العلم والمعرفة من أى طور أطوار الحياة

ولكن . . . كم من حائزى الشهادات والدرجات العلمية ينطبق عليهم هذا القول . نعم أن هؤلاء قد يستطيعون أن يسردوا لك حقائق ومعلومات استظفروها وحفظوها عن ظهر قلب ، ولكن ضع هؤلاء في مكتبة جامعة منظمة فها رسها وقل لهم اجثوا لنا عن أول من زرع

النخيل والمؤلفات التي كتبت عنه أو عن مرض الانكسار وما أسبابه
وأعراضه وطرق الوقاية منه ، أو كيفية تزيين الغرف المنزلية وفرشها
بالاثاث بأحدث الطرق الصحية والفنية أو غير ذلك وأنا أراهنكم اذا
كانوا يستطيعون اخراج هذه المعلومات من مصنفاتها . وما السبب ؟ لاننا
نعلق أهمية علي تعليم الطلبة كبراء المعارف وصغائرها حتى يجوزوا
الامتحان ولا نعلمهم كيف يبحثون عنها فيما اذا احتاجوا اليها أو الي
غيرها من العلوم التي لا يدرسونها

يقول رسكن ان التربية الحرة لا تنحصر في تعليم الحساب والادب
وترك المتعلمين يمهرون في تحويل أرقام الحساب الى لصوصية ، وعيون
الشعر والادب الى عبت ومجون وخلاعة ، بل تهذيب أجسامهم ونفوسهم
والمقدرة على التنقيب عن المعلومات عند الحاجة اليها

قيل للمهلب . بم أدركت ما أدركت . قال بالعلم . قيل له ، ان غيرك
علم أكثر مما علمت ولم يدرك ما أدركت . قال ، ذلك علم حمل وهذا
علم استعمل

مثل التربية الحرة مثل شاب اشترى سيارة لأول مرة ليقودها هو
بيده ويطبق عليها ما تعلمه من مبادئ الطبيعيات والميكانيكا . فيقطع بها
أميالا وأميالا ومراحل تليها مراحل . يتبوا مجلسه فيها ، فاذا هو أكثر
ارتفاعاً من جميع المارة ويشرف عليهم كأنه في كوكب علوى وهم مخلوقات
صغيرة تزحف علي الارض في بطاء وضآله ، وكلما توغل في السير وأعمل

قدمه في محرك السرعة فتحت له الدنيا أبوابها ووسعت أمامه
رحابها وشقت له أرضها الى السماء سبيلا ، وتفتحت امامه دائرة الأفق
واسعة . وقد يدفع ذلك الشاب الجريء من سيارته أقساطاً موزعة على
شهور كما يدفع الطالب مصروفات الجامعة اقساطاً مجزأة مراعاة للضائقة
المالية . هذه ميزة تسجيلها لاصحاب السيارات ولو اننا نحن الذين لانملك
سيارات نقول الآن همساً ليت فوررد لم يولد ولت نجمة لم يتألق ولت
موريس يوسع الى الموت الخطي . ثكلتك امك يا اوستن فقد فقت
سياراتكم ذرات الاثير فسدت في وجوهنا الطرقات وأغلقت مسالكها
كذلك يقول أعداء التربية الحرة الذين لم يتذوقوا طعمها الا مشبعاً
بتوابل الرق الجغرافي التاريخي والاسر الجبري الهندسي ، والاستعباد
الادبي النثرى الشعري البيولوجي الطبيعي الكيميائي الفسيولوجي ، والثقافة
العاطلة التي تزيد النفس كبرياء وازدراء بالغرب وبعدا عنهم

ليست التربية الحرة كالتربية الالمانية القديمة التي كانت تسبك جميع
طلبتها سبكا بغض النظر عن نزعاتهم واستعداداتهم ، في قوالب حديدية
واحدة حتى ياموا بكل علم وفن كلهم دوائر معارف متحركة . وهذا
يذكرني بعبارة قالها في هذه القاعة أحد كبار الاساتذة منذ اسبوعين
وهو ان الناس يلبسون من الاحذية ما يناسب أقدامهم ولكنهم
لا يفصلون المواد الدراسية طبقا لقياس عقول طلبتهم

لانتادى هنا بتعليم ابنائنا تعليماً سطحياً لأن المعارف السطحية

لا تقل خطراً عن الارهاق بل لا بد للمتعلم من التعمق ، لان العقل انما يبحث عن الحقيقة في العمق لا في السطح ، كما أن الغاطس يغوص في قاع البحر في طلب الآلىء والآلىء لا تعيش الا في جوف البحار وكما أن صغار السمك تطفو على وجه الماء

وهذا نتساءل أية ثقافة حرة تحتاج مدارسنا ؟

كان أرسطو يحب العلوم الطبيعية من جهة ويفكر في ما وراء المادة من جهة أخرى . وكان أفلاطون يعتقد أن الثقافة الحرة . تعنى بالاخلاق اكثر من أى شيء آخر . وكان ارسطقراطياً يكره أن يعمل بيده وكان سيكون يحب الحقائق والمعارف ويقول ان المعارف قوة . وكان العرب مولعين في ابان مجدهم بالعلوم الطبيعية وان كانت مشوهة بضرب من الخرافات . وكان كبلر وجاليليو أول من فكروا في جعل الطريقة العملية والتفكير العلمى أساسا للثقافة الحرة

اذا جارينا برتر اند رسل في خياله قلنا بياناً لوجهات النظر المختلفة في التربية الحرة ان ارسطو لو بعث من الموت اليوم الى عالمنا الحاضر لتنقل بين جامعة اكسفورد وحديقة الحيوانات (لأنه كان مولعاً بالفلسفة وعلم الحيوان كليهما) وكانت اكسفورد اكثر اصغاء الى فلسفته منها الى آرائه في علم الحيوان . ولو بعث افلاطون لاحتقر معامل الكيمياء والطبيعات لانها تتطلب العمل باليد (كان ارسطقراطياً محباً للفلسفة فقط) ورفض ركوب القطارات الكهربائية والبخارية رفضاً باتاً اللهم إلا إذا

الغينا منها الدرجتين الثانية والثالثة واقتصرت الدرجة الاولى عليه وعلى حاشيته دون سواه . وهذا يحقق ما قلناه من أن بعض التربية تورث الكبرياء واحتقار الغير . واذا بعث ارشميدس صاحب القانون الطبيعي المشهور فانه يذهب تواً الى طست الحمام ليعيد تجربته واذا به يرى من النافذة بتلسكوبه باخرة كبيرة تمخر عباب البحر فتدفعه نشوة الفرح الى القفز مرة أخرى من الحمام والهروع الى الشارع عارياً هاماً على وجهه كالجنون

ولو بعث نيتشه اليوم لتنقل بين السوفيث ومستشفى المجاذيب يبحث عن السوبرمان فلا يجده

ولو بعث ديجون الفيلسوف لقضى وقته في البحث عن الرجل الحكيم مستعيناً في ذلك لا بمصباحه القديم بل بمصباح كهربائي قوة ١٠٠ الف شمعة، وليس بعينه المجردة بل بميكروسكوب ذى قوة مكبرة هائلة . أما الفيلسوف الانجليزى بيكون (وكان مولعاً بالمعرفة ويقول أنها قوة) فلو بعث من قبره لوظف في الحال محرراً في الموسوعة البريطانية ولكنه سرعان ما يفصل منها لخروجه عن الموضوع . واذا بعث العرب حزنوا لأن العلماء الى يومنا هذا عجزوا عن استكشاف التبر وتحويل المعادن الدنيئة ذهباً والوقوف على أسرار أكسير الحياة ولكنهم كجاليليو وكبلر (مؤسس الطريقة العلمية في التفكير) كانوا يمتطون ظهور المناطيد ويتنسمون الهواء على أجنحة الطائرات ويخترقون الفياق والقفار على

متن القطارات . بعكس غيرهم من العلماء الذين اذا بعثوا اليوم رفضوا تصديق البخار وكذبوا الكهرباء وكسروا مصابيح الكهرباء واستبدلوها بالسرج والفتيل لان أرسطو لم يذكرها فى مؤلفاته . ولم نبحت عن الأموات ؟ ألا يوجد بين الاحياء اليوم من يصادم كل فكرة حديثة فى التعليم لانها لم تذكر فى مؤلفات هربرت وسيمون ودنلوب وغيرهم

ومع التغييرات التى حدثت فى أساليب التربية فى خلال الحسين السنة الماضية فانا فى حاجة الى استعارة شىء من التربية الحرة فى عصر الدولة الاغريقية . تلك التربية التى كانت تعمل على تقوية الابدان وتهذيب النفوس وعبادة الجمال والطموح الى بلوغه . والصبر على المسكاره وتحمل الآلام حتى الموت فى سبيل الوطن والواجب

كتب رئيس كلية انجليزية أخيراً يقول « أن الكثيرين من الناس يبعثون من العلم سفسطة يضعونها فى أفواه الطلاب حتى اذا ما هبطوا بها الى ميادين الحياة هبوا الى جهنم . أن هؤلاء يزودون ابناؤنا بسلاح المعارف وسيوفها ورصاصها وبنادقها بغير أن يعلموهم كيف يقاتلون بهذه السيوف وكيف يحشون تلك البنادق بالرصاص وكيف يصوبونها . يلزم لمدرسة أن تعلم الطالب كيف يكون ماهراً فى فنون الحياة وضروب العمل »

تخرج من كلية الآداب فى جامعتنا المصرية بضعة طلاب العام الفائت يحملون اجازاتهم النهائية . وتخرج أيضاً من كلية الاداب فى هذا

المعهد بضعة طلاب آخرين يحملون اجازاتها النهائية . فشكا هؤلاء وشكا اولئك أن الوظائف الحكومية لا ترحب بهم ولا تفتح لهم أبوابها . فهل فكر هؤلاء قبل التحاقهم بهاتين السكيتين أنهم انما التحقوا بها لانهم يريدون تربية حرة ؟ ومن الجهة الاخرى هل فكرت الحكومة والمصالح الحرة ، أن التربية كفيلة بنجاح صاحبها فيما اذا أسندت اليه في مصالحهم وظائفها ؟

روت الجرائد العربية أخيراً عبارة عن وزير بريطاني سابق (السر اوكلنجدس) هذا ملخصها ، انى اعلم ابناى الأربعة أن يشقوا طريقهم في الحياة . لقد أتم ابنى الأكبر دروسه في جامعة كمبردج ولكنه اشتغل بمعمل لتكرير الزيت ، وابنى الثانى يشتغل في منجم فحم . ومع أنهما يربحان قليلا ولكنهما سعيدان في عملهما . وكان في طاقى أن يستعمل نفوذى في تعيينهما في منصب قليل العمل والمشقة وافر المكسب ولكنى آثرت أن يعين أحدهما في مصنع والثانى في منجم حتى يبدأ حياتيهما من أسفل السلم .

وقول الوزير يعيد الى الذاكرة خطابا اطلعت عليه أرسله أجنبي كبير كان يشغل منصباً سامياً في حكومتنا المصرية منذ سنوات قليلة مضت وهو الآن يتقلد وظيفة في بلاده — أرسله الى صديق في القاهرة جاء فيه ما يأتى : — « أن ما أتقاضاه في بلادى اليوم أقل من المرتب الذى كان يتقاضاه سكرتيرى الخاص أثناء فى اشتغالى فى الحكومة المصرية وما يتقاضاه سكرتيرى الخاص فى حكومة بلادى أقل مما كان يتقاضاه

ساعى مكتبي في الحكومة المصرية « ثم ختم هذه الصراحة الجميلة بقوله
« ومع ذلك فأننى اشعر فى مركزى الجديد بسعادة لا تفوقها سعادة
وغبطة لا تفوقها غبطة فى سبيل الواجب وخدمة الاوطان »

يرمى الكثيرون بعض البلدان الغربية بأن الناس هناك يحولون تيار
مدنيتهم نحو المادية . غير أننا فى هذه البلاد ماديون قبل كل شىء لأننا
لا نقبل على التعليم الا اذا كان من ورائه وظيفة . أعرف رجلاً ثرياً كان
يبحث عن مدرسة يلتحق بها نجله بشرط أن يتقلاً وظيفة حالاً بعد
نيلها شهادتها بغير أن يكلفا نفسيهما حتى مؤونة البحث عن وظيفة .
وفكر وفكر وأخيراً اهتدى الى ضالته المنشودة وهى مدرسة البوليس
لأن الطالب يخرج منها مباشرة لنقطة البوليس ليكتب فيها محضر مخالفة
لاحد المدمنين على الكوكابين

اذا أنشئت مدرسة للموظفين للالتحاق بها فى أوقات الفراغ انهالت
على أصحابها الأسئلة : وهل يترتب على نيل شهادتها الانتقال من حرف
ب الى ا ؟ واذا أنشئ معهد حر لا يقصد به الا تهيئة الشاب الى خوض
معركة الحياة قيل لنا : وهل شهادته معترف بها من الحكومة ؟ واذا
أنشئت مدرسة لتزويد المعلمين بالمعلومات أوقات الفراغ بادرنا بهذه
الأسئلة : وهل تدفع الوزارة لرحلة شهادتها اعانات للمدارس الحرة عنهم
وهل يترتب عليها ترقية مالية ، وهل ينتقل المعلم منها من قائمة المعلمين
الى سلك النظار والمفتشين

واذا أنشئت مدرسة تجارية متوسطة فى الارياف كانت الأسئلة .

وهل المنتهون منها لدرجة الثامنة أم السابعة ؟
متناقضات وغرائب . نقول أننا شرقيون والشرق مهبط الوحي
والخيال والشعر ، ومع ذلك فأننا أكثر مادية من الماديين
كتب عالم شرقى صينى ينفى وجود المادية فى الغرب والروحانية فى
الشرق وقال : أن آنية جميلة من الخزف لا تزيد مادية عن أرجوزة من
الشعر فى الحب ، وإن كائدرائية سنت بول لا تقل مادية عن بناية شاهقة
من ناطحات السحاب التجارية فى أميركا

أين المادية فى الغرب ؟ أفى اختراع السيارات والمحارث ، تلك
الرسل رسل الرحمة التى خففت من متاعب الانسان والحيوان ، أفى
تقدم الطب ومكافحة الامراض والحميات . وأين الروحانية فى الشرق
أفى الآلام التى يتكبدها الانسان فى البلدان المتأخرة من حمل الاحجار
الثقيلة وجر العربات وفتك الاوبئة وكل ما يحرمه لذة الحياة والاستمتاع
يخيل اليها أن تعريف التربية الحرة على رأى قصصى انجليزى هى
تلك التى تجعل صاحبها يشكو بغير انقطاع من أنه مهضوم الحق
فى مرتبه

أوجد الروحانية فى الشرق فى تلك القصيدة الشعرية التى تكتب
فى مدح زيد وعبيد توصلا لبغية فى النفس
كلا أيها السادة . أن التربية الحرة تبدأ فى تكوين الرجولة بالمنزل
ولا تنتهى بانتهاء المدرسة . وقد قيل اذا أردت أن تربى طفلا تربية

كاملة فابدأ بتربية جدته - وعلى ذلك يكون معظمنا أميين . وقيل
أيضاً أن التربية تبدأ قبل تكوين الجنين وتنتهى بالنزول الى حفرة
الموت وعلى هذا الحساب نكون جميعنا أميين

لنبداً اذن أن نربي أبناءنا وبناتنا تربية حرة حتى نري على الاقل
احفادنا متعلمين وحتى يخرج منا اديسون وفورد وماركوني وداروين
وباستير ومدام كورى وايمى جونسون - هؤلاء جميعهم أبها السادة لم
يتقلدوا مناصب عالية ولم ينالوا شهادات ولا دبلومات ولا درجات علمية
ولكنهم تذوقوا طعم التربية الحرة وأكلوا منها مريضاً وشرّبوا هنيئاً
لنجرد حياتنا من مادية تكاد تقضى على البقية الباقية من تراث
الآباء والاجداد . لنخلق من أبنائنا رجالا يرعون الذمم ويدبرون دفة
الاعمال حسياً تقتضيه المصلحة العامة . لنخلق من بناتنا زوجات صالحات
وأمهات عاملات ، لنرفع من مستوانا الخلق والاجتماعى نبراساً نبداً به
غياهب الجهل والاستبداد ، لنمغن في البحث والتنقيب عن وريقات
البردى الشرقية في اطلال طيبة علنا نجد فى لفائفها ذلك القبس الذى
استمد منه الغرب حكمة الشرق ، لننجن باجلال على زهرات اللوتس
نرتشف من كؤوسها ذلك الشراب العجيب الذى سقى تلك العقول
الراجحة صهباء العبقريّة والنبوغ . لنطو صفحة الماضى غير مأسوف
عليها اذا لم نجد فيها العلاج الشافى ، ونقلب صفحات الحاضر فى كتاب
المدنية الغربية علما نتخذ من طلاسمها أكسيراً يحيى الرمم البالية ،
لنتخذ من الضعف قوة ومن الرق والاستعباد حرية

التفكير العلمي الحر

كان للناس في العصور الغابرة بعض العذر ، لأنهم كانوا لا يفكرون تفكيراً علمياً حراً وذلك لأن معظم البلدان كانت تغلب على أهلها الزراعة والزراعة المجردة من الصناعة ، تدعو الى التفكير المغلق المحدود . فهذه انجلترا ، عند ما غزاها ملوك النورمان من فرنسا في القرن العاشر للميلاد وجدوها متأخرة في تفكيرها ، محافظة رجعية ، وما كادوا يدخلون فيها الصناعات مع ما تيسر من الفنون الجميلة والمهار والعلم ، حتى دب في أهلها ديب الحياة الفكرية . والامم الصناعية يميل أهلها الى التفكير الحر لأنهم يلمسون العلم في الآلات الصناعية بأيديهم ، يحسون به في ما يتعممون به من كساء وغطاء وأثاث وأدوات منزلية ، ويتذوقونه طعاماً في مواد الاكل المثلوجة التي تجلب اليهم من أشاسع الاقطار ويبصرونه بعيونهم في قطر وسيارات تنهب الارض نهباً ، وسفن تجارية تمخر عباب المحيطات والبحار ، وطائرات تقطع الغيا في والقفار ، ويسمعونه بأذانهم في الفونوغراف والتليفون اللاسلكي . ونحن الآن نعيش في مثل هذا العصر ولا عذر لنا اذا لم نفكر تفكيراً علمياً صحيحاً ، خصوصاً أولئك الذين أتيح لهم قسط يذكر من التربية الصحيحة والتفكير العلمي وحده لا يكفي ، ما لم يخفق على صرحه لواء الحرية

تبعث الحكومة سنوياً عدداً لا يستهان به من خريجي المدارس العالية الى أوروبا . ولا بد أن الكثيرين منهم يعودون وهم على علم بأساليب التفكير العالمي ، ولكنهم للأسف يضعون كمات على أفواههم ، ويعقدون السننهم داخل حلوقهم فاذا جرت أقلامهم جف مدادها قبل أن تخط حرفاً جريئاً واذا ما انطلقت السننهم قيدوها بالاغلال قبل أن تنطق بحرف واحد في أدوائنا الاجتماعية . تعالوا معي نستشهد بالتاريخ الحديث ، والتاريخ أصدق حكم

أي مصري غير قاسم بك أمين واصل تفكيره العالمي الحر ، اصلاً لعيب اجتماعي فينا ، رغم ما كيل له من النقد والايلام والتجريس . أي مصري غير مصطفى كامل وسعد زغلول والقلائل من قادة الرأي في السياسة ، ضحى بمصالحه الخاصة في سبيل التفكير الجريء الحر ؟

أي مصري غير رجال بنك مصر من رجال الزراعة والاعمال الهامة الاقتصادية ممن في أيديهم الحل والربط ، قام ينادي بمشروعات عامة ، تنهض بالبلاد من أزمتها الاقتصادية ، وتنقذ الفلاح مما يعانيه من الآلام وما يتخلل حياته من صنوف البؤس والمخاطات مستوي العيش ، وتفتح

أبواباً مغلقة في وجوه عشرات الألوف من الشبان المتعلمين ؟

ليس ثمة منقذ لنا من هذا الجمود الفكري العالمي الحر إلا معاهد العلم ولكن معاهد العلم كما هي اليوم لا يمكن بتاتاً أن تبعث في شبابنا روح التفكير العالمي ، ولا يمكن لها أبداً أن يخرج منها تفكير حر . وطالما بقيت الحال على ما هي عليه اليوم فقل على التفكير العالمي السلام . وقل على التفكير الحر السلامين .

فهذه مدارسنا العليا . أين التحقيق العالمى فيها؟ ألا نجد فيها؟ النجاح
فى الامتحانات مقروناً بالاستظهار والحفظ وتكديس المواد فى الذهن
خصوصاً فى الأسبوع الاخير؟ ألا نجد النجاح فى الامتحانات مقروناً
بالاتفاق مع الاستاذ فى رأى سلفاً ، وقراءة ماذا كراته والكتب التى
يلم بها حرفاً حرفاً ، والويل لمن يطلع على مراجع أخرى؟ ألا نجد النظام
فى المدارس العليا هو عينه نظام المدارس الابتدائية ، من خروج ودخول
وحضور وغياب وتسميع وتأديب وتأدية امتحان بطرق قديمة عقيمة؟
ألا نجد الطالب مقيداً لا يجد مايشجعه على مناقشة الاستاذ أو مخالفته
فى رأى؟

فهذه مدرسة التجارة العليا ، لا تقل ساعات الدروس المقررة فيها عما
هى فى المدارس الثانوية التى تشكو من نظامها من الشكوى . ولا يختلف
النظام فيها عما هو فى المدارس الابتدائية الثانوية يجلس الطالب فيها
خمس ساعات متوالية يسمع لمحاضرات أساتذته ، ويدون ما استطاع تدوينه
من المذكرات ، ثم يخرج منهوك القوى ، مشبعاً بالمواد ، وكل ما يستطيع
عمله خارج المدرسة هو أن يلقي نظرات على ما التقطه كاللبغاء من أفواه
الاستاذة . وأن يراجع فصلاً من الكتاب المقرر — الكتاب المقرر
دون سواه — لأن الزمن والنظام والتقاليد ، كلها لا تسمح له أن يتصفح
كتاباً آخر ، أو يقرأ جهة نظر أخرى . أو بعد هذا تطالب هذا
الجمهور المدرسى بالتفكير؟ أبعد هذا ننتظر تخرج رجال مفكرين ،
قادرين على إدارة الاعمال بأنفسهم ، والتفكير فى تأسيس المشروعات
واستثمار الاموال ، إذا ما وجدت؟ أبعد هذا تقول لهم اعتمدوا على

أنفسكم لا على الحكومة وغير ذلك من النظريات ؟ وهل يمكن أن يهبط عليهم التفكير من السماء ، وينزل عليهم وحي الاعتماد على الذات من طبقات الاثير ؟ .

وكيف نرجو أن يفكر أبناؤنا تفكيراً علمياً حراً وبكالوريا وأخواتها عقبة كؤود في سبيل العلم والحرية ؟ وهل يمكن الطالب أن يتعود التفكير وهو من الصباح للمساء كالجندي يلتقى أوامر حربية لا تقبل أخذاً أو رداً ، وهو يحشو ذهنه بالمواد المتنافرة ، المتعددة ، غير المتجانسة ، فقط توصلاً للكالوريا ؟ .

وكيف تسرى في عروق بنينا دماء الحرية ، ونحن تحشرهم صفاراً في جو المدارس الابتدائية ، المشبع بالاستبداد والارهاق وعدم الحركة ، فيجلس الطفل على مقعد مثبت في الارض ، ويخاطب المعلم صبيحة مثبته في مقاعدهم ، منجدين فوقها تنجيدها ؟ .

نترك معاهدنا تسير على هذا النظام ، وندع القوانين الصامته تفكر للمعلمين ، والمعلمون يتسامون هذا التفكير الصامت المستعمل ويضعونه في أفواه تلاميذهم ، وهؤلاء يخزنونه خزناً حتى يوم الامتحان فيلقونه على القرطاس على عجل قبل أن تسطو عليه أيدي النسيان .

نترك الطلبة يشاهدون عملية التفكير تجري أمامهم في جو لا تنعشه نسيمات الحرية والتفكير ، ونظن أنه بذلك يتعود التفكير

ولكن - كم إنسان في الوجود شاهد التفاحة تسقط من الشجرة فتكشف قانون الجاذبية كاسحق نيوتن ؟

وكم إنسان في الوجود شاهد غطاء الاناء يعلو وينخفض قليلاً فوق

الماء من درجة الغليان فاخترع أول آلة بخارية كجيمس واط ؟
وكم إنسان في الوجود شاهد الشرر الكهربائي يقدح بين سلكين ،
أحدهما موجب والاخر سالب فاخترع المصباح الكهربائي كأديسون
وكم إنسان في الوجود سمع أصداء الصوت تحملها أمواج الاثير
فاخترع اللاسلكى كمركوني ؟

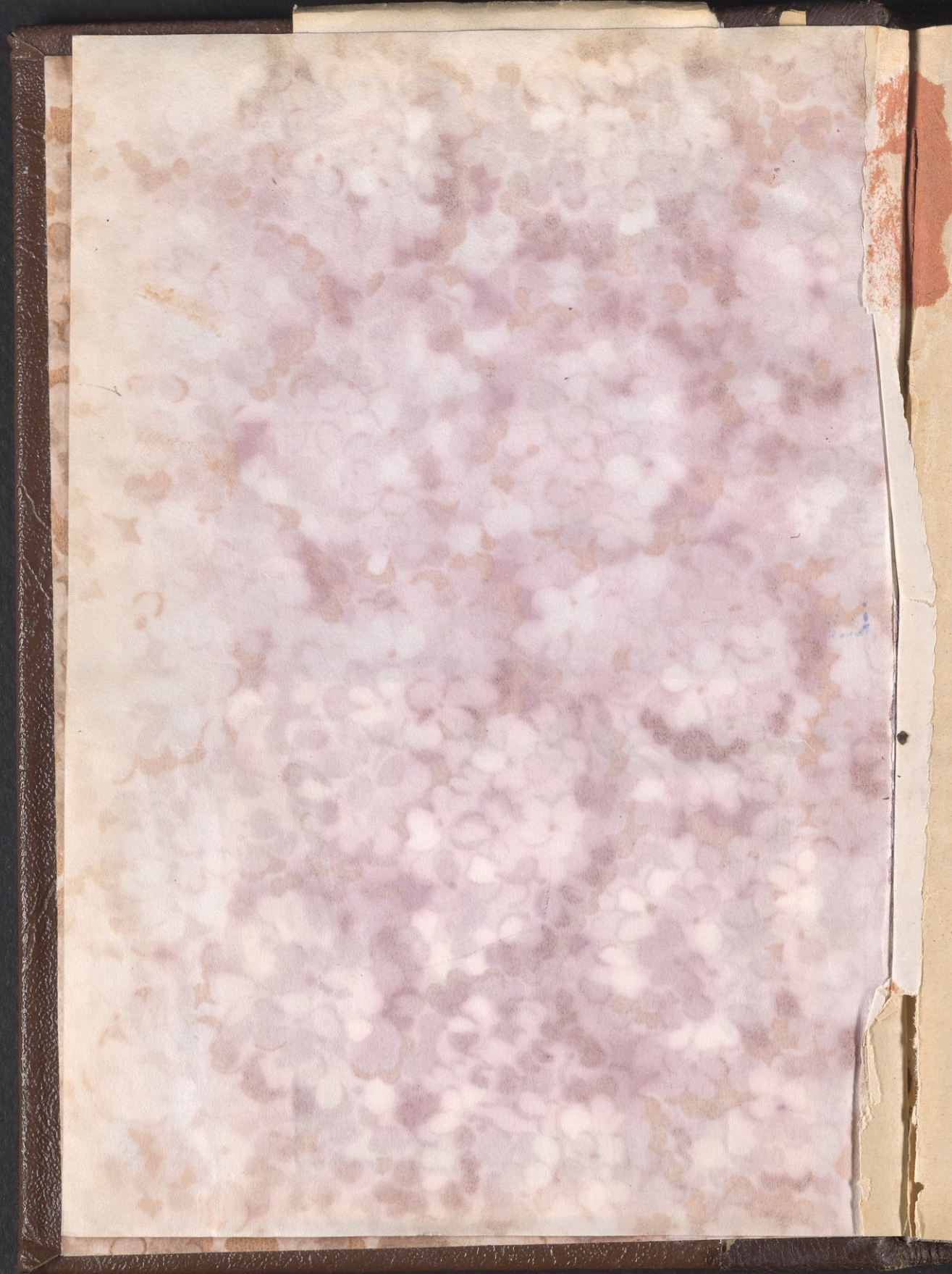
قد يكون التفكير العلمى هبط على هؤلاء من السماء وقد يكون
هناك من تدفع به العبقرية الى الامام ، فيخترع ، ويبتكر ، ويستكشف
أينما وجد ، وكيفما كان نظام المعهد الذى يدرس فيه . ولكن ماذا نفعل
بجيش جرار من الشبان ذوى المواهب المتوسطة والعقول المعتادة ؟ ألا
يمكن أن نهى لهم الجو المدرسى الذى فيه يكون الفكر حراً طليقاً ،
فيستطيعون أن يشقوا لأنفسهم طرق العيش ، إذا لم يقدموا على الاختراع
والابتكار والاستكشاف ؟ ألا يمكن أن ندع هؤلاء سبيلاً للبحث
والتفكير واستقصاء المسائل واستخلاص الآراء من مصادرها ؟

ليس الاستظهار والحفظ ونيل الشهادات والمشاهدة وحدها تكفى
للتفكير العلمى الحر . لنبحث عن الحقيقة أينما وجدت ، علينا كانت أم لنا
قبل أن نصدر على الأشياء أحكاماً . لنتذرع بالتسامح وعدم التحيز توصلنا
إلى جعل التفكير علمياً ، لنتجنب التحايل على الأدلة تحايلاً لأننا بذلك
نخدع أنفسنا قبل الغير .

لنجرب الأشياء بأنفسنا ، أو نعتمد على تجارب من يوثق بهم ويعتمد
عليهم من الاختصاصيين فى أعمالهم
وأخيراً لنفكر فى عالم الحرية الواسع ، متخذين الجرأة فى الحق سلاحاً
لنا والشجاعة فيما نقول ونكتب ، رائدنا . ولنفكر دائماً فى المصلحة
العامة قبل الخاصة .

فهرست الكتاب

صفحة	
٣	القراءة الصامتة
١٦	اختبار الذكاء
٣٣ —	العاطفة الجنسية
٤٦	صناعة الكلام
٤٩ —	ما العيب في مدارسنا
٦٠	مسائل الطفولة
٦٦ —	القلق التعليمي
٧٨ —	أهم مبادئ التربية
٩٣ —	التربية الحرة
١٠٧	التفكير العالمي الحر



C - LIBRARY



DATE DUE

LA
1646
B52x

APR 1982
6 MAY 1987



1 0 0 0 0 1 1 4 3 3 7

